عصر السلام

السلام هو الثقافة والخيار المثمر للإنسان والكون

عصر السلام

السلام هو الثقافة والخيار المثمر للإنسان والكون

تونس
2021

الكتاب: عصر السلام.
المؤلف: وحيد الدين خان.
الترجمة: د. عمر أحمد، أ. طارق بن ساسي، مصطفي زقيره.
المراجعة اللغوية: أ. د. عبد الله على الصويعي.
الناشر: جمعية الرسالة.
الطبعة الأولى، 2021م.
المعرف الدولي للكتاب : ISBN : 978-9938-59-922-0
هذا الكتاب ترجمة لكتاب : (Age of peace) الصادر عن

Goodword Books, Hyderabad
Tel. +91 4023514757
Mob. +91 7032641415, +91 9448651644
Email: hyd.goodword@gmail.com
Goodword Books, Chennai
Tel. +91 4443524599
Mob. +91 9790853944, +91 9600105558
Email: chennaigoodword@gmail.com
Islamic Vision Ltd.
434 Coventry Road, Small Heath
Birmingham B10 0UG, U.K.
Tel. 1210137-773-, Fax: 1218577-766-
e-mail: info@ipci-iv.co.uk,
www.islamicvision.co.uk
IB Publisher Inc.
81 Bloomingdale Rd, Hicksville
NY 11801, USA
Tel. 5161000-933-
Fax: 5161200-933-
Toll Free: 13222-560-888-
email: info@ibpublisher.com
www.ibpublisher.com

تم طبع وإنجاز هذا الكتاب في



12 نهج الخيرية ـ 1002 تونس البلفيدير
البريد الالكتروني sotepagraphic@yahoo.fr

فهرس الكتاب

الفصل الرابع:

شهادة التاريخ

الفصل الخامس:

الحاجة إلى أيديولوجية في مواجهة أيديولوجية العنف

الفصل السادس:

السلام في الإسلام

الفصل السابع:

الإسلام والسلام

تقديم

يسرنا أن نقدم للقارئ العربي ترجمة كتاب عصر السلام، لمؤلفه الشيخ وحيد الدين خان، والمؤلف عرفه الكثيرون من خلال كتابه الإسلام يتحدى، مع أن كتبه الأخرى لها أهمية كبرى، عالجت قضايا حساسة في فهم الدين وتجديده، مثل «تجديد علوم الدين»، أو كتبه في فهم العصر والبصيرة بالزمان وتوجيه العمل الإسلامي لميدان الجهاد الحقيقي، وهو نصرة دين الله من خلال نشره، والدعوة إليه، ونبذ أسلوب العنف والتطرف ولزوم سبيل الحكمة والصبر، ومن كتبه الهامة «الإسلام والعصرالحديث» و«وواقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام»، و«قضية البعث»، و«حكمة الدين»، و«التفسير السياسي للدين»، وغيرها الكثير، أي له من المؤلفات ما يناهز المائتي مؤلف بالأردية، ترجم الكثير منها للأنجليزية، ومازال الشيخ وحيد الدين يقوم بالكتابة والتأليف، رغم تقدمه في السن، ومازالت مجلة «الرسالة» التي يكتبها منذ ما يقارب النصف قرن بالأردية والأنجليزية Spirt of Islam تصدر إلى اليوم، وقد تميزت مؤلفات الشيخ وحيد الدين خان، ببساطة الأسلوب وعمق المضمون، وهي نتاج دراسة معمقة، لمصادر التراث الإسلامي والمصادر العلمية الحديثة، فلقد عكف المؤلف على دراسة كتب أهم الفلاسفة المعاصرين، فقرأ عن الماركسية ألآف الصفحات حتى أنه قرأ كتاب الرأس مال لماركس، وألف في الرد على الماركسية كتابه: «الماركسية في الميزان»، ومن أجل الرد على الفيلسوف البريطاني برتراند رسل قام بقراءة كل أعماله، وله

ردود عليـه في مواضـع متفرقـة، وفي هـذا الكتاب يسـعى المؤلـف لإعادة برمجـة العقليـة المسـلمة لفهم العـصر، والعمل على بصيرة، والاسـتفادة مـن الإمكانـات والفـرص التي سـخرها الله لنا في هـذه الأزمنـة، والبعد عـن ميادين العمـل السـلبي القائـم عـلى العنـف ورد الفعـل، والكتاب دعـوة لتبنـي المنهجية السـلمية لنصرة الدين وخدمتـة. وقد ألحقنا بهذا الكتـاب ترجمـة مقـال بعنوان :«خطـة الله في الخلق»، لمـا لها من علاقة بموضـوع الكتاب.

طارق بن ساسي

طرابلس 12 /01/ 2021م

مقدمة الكاتب

في الثـاني عـشر مـن ينايـر سـنة 2015م، كنـت طريـح الفـراش في مستشـفى ماكـس بنيودلهـي، أعـاني مـن آلام حـادة بعد إجـراء عملية جراحيـة. حينهـا دخـل الطبيـب غرفتـي وقـال: «لا تقلـق، إنهـا مجـرد فـترة مؤقتـة، وقريبـاً سـيصبح كل شيء عاديًـا».

لم أنـم طيلـة تلـك الليلـة، وظلـت كلـمات الطبيـب حـاضرة تجـول في خاطـري وتفكـيري. وبـدأت أمعـن النظـر والتفكير في الذيـن انخرطوا في أيامنـا هـذه - في حـرب مقدسـة منفـردة ذاتيـة (من جانـب واحد)- أولئك الذين يقترفون أعمال عنف تسـتهدف أناسـاً آخرين في كل مكان، في أماكـن العبـادة أو الأسـواق أو الفنـادق أو الأماكـن العامـة، وحتـى المقابـر. إن العنـف الـذي قـام أولئك بإطلاقـه أدّى إلى قتـل وحشي لعدد كبـير مـن النـاس الأبريـاء. وعندها تذكرت آيـة من القـرآن الكريم تخبرنا بـأن قتـل نفـس بشريـة واحـدة مسـاو لقتل البـشر جميعـاً، قـال تعالى: ﴿مَن قَتَـلَ نَفْساً بِغَـيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّاسَ جَمِيعـاً..﴾، (المائـدة: 32)، ويوجـد اليوم أكثر من سـبعة مليارات نسـمة حـول العـالم، وذلـك يعنـي أن أولئـك الذيـن يقتلـون ولـو نفسـا واحدة يسـتحقون عقوبة قتل سـبعة مليارات نفس بشرية، وعندما خطر ذلك في ذهنـي كنـت في غايـة الكـرب والحـزن، وسـألت نفـسي كيـف لأولئك الذيـن يقتلـون الآخريـن تحمل مثـل ذلك العـذاب القـاسي الأليم.

مـا هـو السـبب وراء خطـورة قتـل النفـس البشريـة؟ إنـه بسـبب أن هـذا الأمـر أي (قتـل الأنفـس) هـو شـأن ينسـب في الظاهـر للكائـن

البـشري (الإنسـان)، ولكـن في الحقيقـة هـو شـأن خـاص يعـزى مباشرة للـه تعـالى. وذلـك يعنـي أن قتل النفـس البشرية معـادل للاعتراض على تدبـير الله وسـنته في الخلـق. فهذا القتل للنفس البشريـة معناه حرمان الشـخص مـن فرصة عيش حياته إلى منتهاها، والقيـام بأداء دوره المقرر لـه مـن قبـل خالقـه. وعندمـا يقـضي الشـخص عمـره كامـلاً كـما منحه لـه الخالـق، يكـون قـادرا عـلى القيام بالـدور المنـوط به في هـذا العالم.

في الواقـع، إن منـح الحيـاة أو سـلبها يعـزى مبـاشرة للـه تعـالى، وبمجـرد أن يعـي المـرء خطـورة ذلـك الأمـر، فلـن يجـرؤ مطلقـا عـلى الإقـدام عـلى قتـل أي شـخص.

وعندمـا فكرت في تلك المسـائل، فكرت مليـاً في قضية أولئك الذين يقترفـون التفجـيرات الانتحارية، إنّ الأعـمال الانتحارية غير مشروعة في كافـة الأديـان والنظـم القانونيـة في العـالم، ووفقـاً لحديث نبي الإسـلام صـلى اللـه عليـه وسـلم إنّ مـن يقدم عـلى الانتحار فمصـيره الخلود في النـار، توقفـت عنـد ذلـك التفكـير، وبـدأت دموعـي تنهمـر مـن عيني وقلـت في نفـسي كيـف لأولئـك الذيـن يقترفـون الانتحـار تحمـل آلام أبديـة في عـالم الآخـرة، بينـما أنـا لم أكـن قـادراً عـلى تحمـل ألم مؤقـت أقـل شـدة وربما أقـل ألماً؟

قـد روى أحـد أصحـاب الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم الحديـث التالي:

«كنـا برفقـة النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم في غـزوة، وكان معنـا شـخص يدعـى قزمان بن الحـارث، كان قد اعتنق الإسـلام، وأثناء المعركة عـانى مـن جـروح كثيرة، وبـدأ الناس يمدحونه أمام رسـول اللـه صلى الله عليـه وسـلم عـلى الشـجاعة التـي أظهرها في الحـرب، ولكـن النبي صلى

اللـه عليه وسـلم قال:« إنـه من أهل النـار»، (البخاري- كتـاب المغازي)، أي أنـه أحـد أهـل النـار بالتأكيـد، فـكاد بعـض النـاس يرتابـون، فذهبوا ليتحققـوا، فعرفـوا أن الرجـل لم يتحمـل آلام الجـراح، فأهـوى بيـده إلى كنانتـه فاسـتخرج منهـا سـهما فنحـر به نفسـه، (حـال قزمان هـي حالة انتحـار)، وعندمـا أخـبر النبي صـلى الله عليه وسـلم به قـال: «الله أكبر، أشـهد أني عبـد الله ورسـوله.»[1]

تلـك كانـت ليلـة مروعـة بالنسـبة لي، فقـررت في تلـك الليلـة وبعد تماثلي للشـفاء، سـيكون أول عمل أقوم به هو تأليف كتاب عن السـلام، فـكان هـذا الكتاب نتيجة لذلك القـرار الذي اتخذته وأنـا طريح الفراش بالمستشفى.

إن الغـرض مـن هذا الكتاب هو إعادة بناء الوعي، أوإعادة تشـكيل تلـك العقـول التي تفكـر بمصطلحات العنف، إن هـدف الكتاب أن يعي مثـل أولئـك الأفـراد أنـه بإمكانهـم النجاح بشـكل كامل بطرق ووسـائل سـلمية لتحقيـق ما لم يكونـوا قادرين على تحقيقه بوسـائل العنف.

أتقـدم بالشـكر والعرفان الخاص للسـيدتين اللتين سـاعدتاني بشـكل كبـير في إعـداد هـذا الكتـاب، الدكتـورة فريـدة خـان، الأسـتاذة بالجامعة الإسـلامية المليـة نيودلهـي، وماريـة خـان المتحصلـة عـلى البكالوريس في الفيزيـاء، التـي تتابـع دراسـة الدكتـوراه في الدراسـات الإسـلامية بجامعة هامدارد-نيودلهي. كما أتقدم بالشـكر إلى عزيز أحمد الذي قرأ مخطوط الكتـاب وعلـق عليـه، بـارك الله فيهـم أجمعـين وجزاهم اللـه خيراً.

وحيد الدين خان نيودلهي

26 يونيو 2015م

1 - صحيح البخاري، حديث رقم (3062).

الفصل الأول:

سلام من أجل إحلال السلام

السلام في السلمية

السـلمية مبـدأ تبنـاه كل أولئـك الذيـن وجـدوا في الحـرب وكل مظاهرهـا شرورا مقيتـة، كالعنـف والدمـار وفقـدان الأرواح عـلى وجه الخصـوص، وإعـدام الوجـود الإنسـاني، وقـد عُـدّ السـلام عـبر العصـور والأزمنـة القديمـة موضـوع مصلحـة قهريـة مفروضـة، ودرس باهتـمام مـن قبـل كل المفكريـن، ابتداءً من أرسـطو إلى تومـاس الأكويني، ومن برترانـد رسـل إلى المهاتمـا غانـدي. لقـد انشـغلت العقـول العظيمـة بمسـألة السـلام وناصرت ما يوافق سـبل السـلام. ومع أن العام 1937م شـهد صـدور موسـوعة السـلام، لكـن الوصـول إلى صيغة عامـة تحظى بالقبـول وتؤسـس للسـلام، لم يتـم بعد.

إن السـؤال الأسـاس: لماذا تحقيق السـلام؟ وما هو معيار السـلام؟ دعـاة السـلام في العمـوم يتمسـكون بـأن السـلام يتضمـن العدالـة الاجتماعيـة، أو أن السـلام يتحقـق فقـط بإحـلال العدالة بـين الجميع، فدسـتور منظمـة العمل الدوليـة التابعة للأمم المتحـدة في التعامل مع قضايـا العـمال قـد أكد عـلى أن:

«السـلام الشـامل والدائـم يمكـن تأسيسـه فقـط عـلى العدالـة الاجتماعيـة...»[2] ولقـد ظفـر ذلـك المفهـوم للسـلام بقبـول عـام بـين العلـماء والمثقفـين.

إنّ السـؤال الجوهـري الـذي يطـرح ها هنـا، كيف أن السـلام بهذا المعنـى لم يتحقـق أبـداً عـلى مر التاريـخ البشري؟ أي أن إحلال السـلام مـشروط بالعدالـة الاجتماعيـة. التاريـخ نفسـه يقـدم دليـلاً تجريبيـاً

2- International Labour Organization, <http://www.ilo.org/global/about-the-ilo/history/lang--en/index.htm>, [accessed on July 19, 2015].

على حقيقة ذلك التعريف للسلام لأنه لا يتفق مع السنن الكونية. والحقيقة أنه في هذا العالم لا يستطيع المرء تحقيق أي شيء حين التخلي عن الالتزام بالسنن الكونية.

إن سبب الفشل في إحلال السلام هو أن معظم العلماء ربطوا إحلال السلام بتوفر عوامل محددة ليست ذات علاقة بمفهومهم للسلام الحقيقي وهو أنه لا ظلم ولا انتهاك لحقوق الإنسان وعدم مساواة ولا عنف بأي شكل من الأشكال.

دعنا نأخذ التناظر الوظيفي للتربة فهي تعطينا الغذاء الذي من دونه لا نستطيع الاستمرار في الوجود، طبقاً للسنن الكونية، إذ يجب علينا أولاً الحصول على أراضي خصبة، ثم نعدها لزراعة المحاصيل. والأمر مشابه لحقيقة السلام، فالسلام مثل التربة الاجتماعية، إذ من خلال الزراعة يمكن الحصول على ثمار العدالة الاجتماعية، كما أنه لا يمكن جلب الغذاء مباشرة من التربة، فإنه بالمثل لا يمكننا تحصيل العدالة الاجتماعية مباشرة من إحلال السلام.

وبحسب السنن الكونية، فإنّ السلام لا يمكن تحقيقه إلا على أساس أحادي، أي من جانب واحد، وليس على أساس ثنائي أي من كلا الطرفين، ذلك يعني أنه يتوجب علينا أولاً وقبل كل شيء التخلي عن كل أشكال المواجهة وأساليبها، مثل النشاطات السياسية، والنشاطات القائمة على الاحتجاج والمعارضة والمطالبة الحقوقية. إن المسلك الأحادي الجانب سوف يؤسس وضعاً مستقراً، والاستقرار سيقود إلى إحلال السلام، والسلام سيفتح الباب لكل أنواع الفرص، عندها من خلال التخطيط الحكيم سنتمكن من تحقيق كل المكاسب التي نرغب في الحصول عليها من منظور العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان.

وذلـك مـا يمكـن أن نطلق عليه اسـتراتيجية السـلام، ولنأخذ واحداً مـن الأمثلـة التاريخيـة لذلـك، وهـو معاهـدة «صلـح الحديبيـة» التي انضـم إليهـا نبـي الإسـلام صـلى اللـه عليـه وسـلم سـنة 628 م، والتـي اقتضـت بموافقـة النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم عـلى جميـع شروط خصومـه. إن مثـل تلـك التنـازلات قـد بـدت بـلا معنـى لأصحابـه في حينهـا، ولكـن الملمح الأسـاس للاتفاقيـة كان ضمان فـترة زمنية ممتدة تضـع الحـرب فيها أوزارها مـن حيث المبدأ، وأن مـدى معاهدة الصلح والـلا حـرب يبلـغ عشر سـنوات، مما يمنـح النبي صلى الله عليه وسـلم وأصحابـه رضـوان الله عليهـم، فرصا كثيرة لنشر الإسـلام في كل الأنحاء.

إن صلـح الحديبيـة كان قصـة نجاح كبيرة (الفتح المبين)، وبدراسـة مضامينـه ومعانيـه، يمكننا رسـم صـورة متكاملة عن الموضـوع وتطوير منهـج ناجـح لتحقيق الهـدف المرغوب فيه.

يتحقق السـلام على أسـاس أحـادي فقط، أي من جانـب واحد دون مواجهـة الآخريـن، ولكـن عندمـا نرغـب في إقامـة العدالـة الاجتماعيـة وحقـوق الإنسـان، تصبـح المسـألة ثنائيـة متعلقـة بـكلا الطرفـين، لأنـه يتوجـب علينـا حينهـا مصارعـة المجموعـات الأخـرى التـي نعتقـد بأنها مسـؤولة عـن الظلـم وانتهـاك حقـوق الإنسـان. وإذا شرعنـا في طريقنـا لبلـوغ هـذا الهـدف، فـإن ذلـك يفـضي بنـا إلى المواجهـة مـع الجماعات الموجـودة، وبـدلاً مـن بلوغ الهـدف المرغوب فيه، فإن الأشـخاص موضع الاهتـمام سـينخرطون في العنـف. لذلـك يتوجـب علينا اسـتنباط المنهج القابـل للتطبيـق دون التورط في المواجهة مـع الجماعات الأخرى القائمة. في الواقـع، إن تحقيـق دعـوات العدالـة الاجتماعيـة وحقـوق الإنسـان، مـن خـلال تخطيـط في منتهـى الحكمة، ليسـت تلك برحلـة على طريق ممهـدة فسـيحة، بـل إنهـا رحلـة وعرة عـبر آجـام وأدغال شـائكة.

ولهـذا، فـإن إحـلال السـلام من أجـل تحقيـق العدالـة الاجتماعية ليـس بالصيغـة العمليـة (القابلـة للتطبيـق)، إذ يوجـد صيغـة واحـدة فقـط قابلـة للتطبيـق وهـي إحـلال السـلام من أجـل الاسـتقرار، وهذا الاسـتقرار فقـط هـو الـذي يمنحنا الفرصـة للقيام بتخطيـط حكيم لازم لتحقيـق هدفنا.

فالتخطيـط الحكيـم غـير خـلافي ولا جـدلي في الطبيعـة، إنـه الـشيء الـذي يمكـن القيـام بـه، دون الدخـول في مواجهـة مـع الآخريـن، بغـض النظـر عـن أي شريحـة من المجتمع الذي ينتمون إليـه. والصيغة في هذا الاعتبـار هـي تأسـيس لمناخ سـلمي مهـما كان الثمن، وذلك سـيفتح كل أبـواب الفـرص، وعنـد ذلـك، وبالاسـتفادة مـن تلـك الفـرص ومـن خلال التخطيـط الحكيـم (حسـن التدبـير)، يمكننـا تحقيق النجاح المنشـود.

السلام هو الخير الأسمى

الخـير الأسـمى لغـةً يعنـي الخـير الأعظم، فهـو منتهـى الغايات في حـد ذاتـه. وفي الوقـت نفسـه يحمـل في طياتـه كل الخـيرات، فماهـو الخـير الأسـمى عملياً؟ النـاس لديهـم آراء مختلفـة حـول هـذا الأمـر، فمعظـم النـاس يتمسـكون بـأن الحريـة هـي الخـير الأعظـم، ولكـن الحريـة لا يمكـن وصفهـا بذلـك، إن الخـير الأسـمى هـو منفعـة قصوى خاليـة مـن الآثارالجانبيـة السـلبية، غـير أن المنفعـة المرجـوة مـن وراء السـعي لنيـل الحريـة غير المـدروس والمخطـط له، يمكـن أن ينجم عنه الفـوضى. والفـوضى تخلـق مشـاكل يتعـذر حلهـا، وتصاحبهـا عراقيـل تمنـع وتصـد كل أنـواع النجـاح نحـو التطوروالرقـي المـادي والروحي.

والحقيقـة هـي أن الخير الأسـمى الحقيقي هو السـلام، وهو خير في جميـع الظـروف والأحـوال. أيـا كان الأسـلوب الذي نسـتخدمه من أجل

إحلال السـلام، فلن يكون له على الاطلاق نتائج سـلبية، فالسـلام يجلب الاسـتقرار ويعـود بالأمـور إلى طبيعتهـا (حالـة الطبيعـة)، وهـذا أفضـل مايجلبـه إحـلال السـلام، لأن كل أنـواع التطـور والتقدم تجـد لها موطئا ومكانـا في أوضاع الاسـتقرار العادية.

هنـاك نوعـان من السـلام: السـلام الفردي على المسـتوى الشـخصي، والسـلام الجماعـي المجتمعـي ، والاسـم الآخـر للسـلام الفردي هو سـلام العقـل، وسـلام العقـل هـو الأكـثر أهميـة لجميـع الأفـراد. والمقصـود به حسـن التدبير الفردي، أي أن يحظى الفرد بالسـلام العقلي عندما يكون الفـرد قـادراً على حسـن إدارة نفسـه فقـط. ومن جهة أخـرى فإن جلب السـلام للمجتمع هو مسـألة تتطلـب اتخاذ إجـراءات أو تدابير جماعية.

عنـد التأمـل عبر التاريخ، تجد أن حسـن التدبـير والإدارة للمجتمع في معنـاه النموذجـي القيمي هدف مراوغ ومضلـل. فأولئك المصلحون الذيـن عملـوا مـن أجـل تحقيق مجتمع السـلام المثـالي النموذجي تبين لهـم أن مسـاعيهم تـؤدي إلى العنف بدلاً من السـلام الاجتماعي.

فماهـو السـبب وراء تلـك النتائـج السـلبية؟ السـبب أن أولئـك النشـطاء الاجتماعيـين ربطـوا بـين مفهوم السـلام الاجتماعـي والعدالة الاجتماعيـة. فطـوروا نظريـة مفادهـا أنـه لا يمكـن تحقيـق السـلام الاجتماعـي إلا مـن خـلال تحقيـق العدالـة الاجتماعيـة. أولاً وقبـل كل شيء، إنهـم شـعروا أنـه يتوجـب عليهـم إقامـة العدالـة الاجتماعيـة، حينهـا ونتيجـة لذلـك سينشـأ السـلام الاجتماعـي.

غـير أن هـذه النظريـة ليسـت قائمـة عـلى أسـس فطريـة عـلى الإطـلاق، وبنـاءً عـلى ذلـك فهـي نظريـة غـير قابلـة للتطبيـق، طبقـاً للسـنن الكونيـة فـإن دور السـلام هـو تهيئـة أرضيـة مناسـبة لـكل

الأنشـطة المختلفـة، وبالاسـتفادة مـن تلـك الأرضيـة نسـتطيع تحقيـق هـدف العدالة. إن الدور الأسـاس للسـلام هو تحقيـق الحياة الطبيعية المسـتقرة، التـي تكون مطلبا أساسـيا لكل أنواع النجـاح. لذلك يتوجب علينـا في البـدء إقامـة السـلام مهـما كان الثمـن.

المشـكلة تكمـن في أن السـلام الاجتماعي مسـألة أحاديـة الجانب، ويوجـد دائمـاً العديـد مـن الجماعات التي تشـكل المجتمـع، وعليها أن تقبـل خطـة سـلام، وعندها يمكـن بالفعل إحلال السـلام.

إذاً ماهـو الوضـع المشـترك المقبـول لـكل أجـزاء المجتمـع، الصيغة الأفضـل للسـلام هـي القبـول والعمـل في ظـل الوضعية القائمـة، أي أن أفضـل صيغـة للسـلام هي قبول الوضـع القائم، وذلك أنـه إذا ما حاول شـخص إحـداث تغيـير في الوضع القائم، فذلك يمكـن أن يقود أو يفضي إلى العنـف، وإذا قبـل المـرء بالوضـع القائم، سـيحل عند ذلك السـلام.

إن الصيغـة القابلـة للتطبيـق في هـذا الوضـع يمكـن التعبـير عنهـا عـلى النحـو التالي:

- عنـد الرغبة في إقامة السـلام الفردي تؤخـذ المثالية بعين الاعتبار، بينـما تراعى الواقعية عند الرغبة في إقامة السـلام الاجتماعي.

لا توجـد صيغـة أخـرى فاعلـة في التدبـير والتخطيـط لتحقيـق الأهـداف وبلوغهـا. ولنأخـذ مثـالا عـلى ذلـك يوضـح هـذا المعنـى:

بعـد الحـرب العالميـة الثانية حاولـت كل من ألمانيـا واليابان إعادة التطويـر والنهـوض ببلديهـما التـي دمرتهـما الحـرب. ولتحقيـق هـذا الغـرض كانـت البيئـة السـلمية ضرورة لكلتـا الدولتـين. ولكـن كانـت هنـاك بعـض المشـاكل، عـلى سـبيل المثـال، فقـد فقـدت ألمانيـا الجـزء الشرقـي مـن أراضيهـا، و الأمر نفسـه حصل لليابان أيضـاً، التي خسرت

جزيرتهـا الاسـتراتيجية (أوكينـاوا)، لقـد اختـار كلا البلديـن صيغة قبول الوضـع القائـم دون العمـل عـلى تغيـير الوضـع الراهـن، وشرعـوا في تنفيـذ مخططاتهـم، أي في إعادة بناء بلديهما، باسـتخدام المصادر التي مازالـت تحـت تصرفهـم وسـيطرتهم. وكلاهـما برهن على كونـه ناجحا وحقـق مسـتويات عاليـة مـن التطـور في فترة زمنيـة قصيرة قياسـية.

إن السـبيل الوحيد لإقامة السـلام في المجتمع، إذا أردنا تحقيق أي أهـداف ماديـة أو روحية اتبـاع هذه الصيغة:

(اقبـل الوضـع القائم واعمل عـلى إنجاز عملك بالتدابير السـلمية، بهذا الأسـلوب سـتحقق بالتأكيد كل النجاح.)

إنهـا لحقيقـة أن السـلام هـو الخـير الأسـمى، ولكـن إذا رغبـت في تحقيـق السـلام يتوجـب عليـك اتبـاع السـنن الكونيـة. وذلـك يعنـي أن السـلام يمهـد الأرضيـة لممارسـة كل النشـاطات، وليـس نتيجـة لتلك النشـاطات. الطريـق السـليم هـو أنـه في البـدء يجـب تهيئـة أرضيـة صحيحـة وعندهـا تحقـق أهدافـك مـن خـلال التخطيـط الحكيـم.

إن السـلام بمثابـة التربـة، وبدون التربـة لا وجود للأشـجار، وبالمثل فإنـه بـدون سـلام لا تكـون هناك تنميـة وتقدم أو رقـي اجتماعي.

السلام والعدالة

في العـصر الحديـث انخرطـت العديـد مـن الجماعـات في أعـمال العنـف، وإذا توجهـت إليهـم بالسـؤال: لمـاذا تقومـون بأعـمال ينجـم عنهـا سـفك الدمـاء؟ سـوف يجيبـون: «لأننـا ضحايـا الظلـم، امنحونـا العدالـة ونحـن نعطيكـم السـلام، بالمقابـل.»

إنّ الـشرط الثـاني لتحقيـق السـلام تحقيـق العدالـة، وهـو أمـر مسـتحيل، فمن خلال النضال والكفاح من أجل العدالة يتحقق السـلام، إن هـذا الـشرط بمثابـة وضع العربة أمام الحصان، إن كل الأشـياء في هذا العـالم، تخضـع وتعمـل وفقـا للسـنن الكونيـة، ومطلب تحقيـق العدالة ليس اسـتثناء.

وطبقـاً للقوانـين الكونيـة، فالعدالـة لا تمنـح لشـخص مـا بمثابـة الهبـة أوالهديـة، والسـبيل الصحيـح لبلوغها، إنه وقبـل كل شيء، يجب العمـل مـن أجـل إقامـة السـلام مـن جانـب أحـادي، والسـلام بـدوره سـيفتح الأبـواب لـكل الفرص. عند ذلك تسـتغل الفرص عـبر التخطيط الحكيم للمسـاعدة في تحقيق العدالة. ولا يوجد في التاريخ أي شـخص أحـرز العدالـة بواسـطة القتال.

السـلام ليـس مقصـوداً مبـاشرة من أجـل تحقيق العدالة، فالسـلام ضروري مـن أجـل إرسـاء الحيـاة الطبيعية (الاسـتقرار)، وعندما تسـود الحيـاة الطبيعيـة أوالاسـتقرار، تصبـح كل الفرص متاحـة وممكنة، وأنه مـن خـلال الاسـتفادة مـن مثـل تلك الفـرص فإنـه يمكن للمـرء تحقيق العدالة.

ولا يمكـن تحقيـق العدالـة لمجـرد كونهـا حقـاً، وبالأحـرى إن المـرء يحظـى بالعدالـة عندمـا يثبـت أنـه جدير بهـا، إذا تذمرت ضـد الظلم الاجتماعـي، وألقيـت اللـوم عـلى الآخرين فذلـك ليس مسـلكاً صحيحاً نحـو تحقيـق السـلام، إنـه يتوجب عليـك عوضـاً عن ذلـك العمل على معرفـة جوانـب القصـور والخلـل لديك، وطبقاً للسـنن الإلهيـة فإن ما تطلـق عليـه الظلـم الاجتماعـي هـو نتـاج نقصـك لاسـتحقاق العدالة، لهـذا السـبب فـإن تحقيـق العدالـة يتوجـب عليـك إعـداد نفسـك

طبقاً لذلك، والظلم يمكن القضاء عليه من خلال التعليم والعمل الشاق، وليس عن طريق المطالبة والاحتجاج، إن استراتيجية التذمر والاحتجاج لن تهبك العدالة أبدا.

إن عالمنا هو عالم قائم على المنافسة، وفي هذا العالم يمكن للمرء تحقيق أي شيء فقط على قاعدة الاستحقاق، وليس من خلال الشكوى أوالمطالبة.

لقد ظهر عدد كبير من المصلحين الذين كان هدفهم تحقيق العدالة الاجتماعية من خلال المطالب، ولكنهم فشلوا، والسبب وراء ذلك الفشل كان في أن انطلاقهم لم يكن من الواقع.

هناك نقطة انطلاق واحدة فقط، وتلك النقطة هي: تعليم الناس وجعلهم مؤهلين ومستحقين ليحظوا بالعدالة، العدالة لمن هم أكفاء جديرون بالتقدير، إنها لا تتحقق بصورة آلية. فإذا كنت تستحق العدالة، فإنك بالتأكيد ستنالها. غير أنه إذا كان ينقصك الاستحقاق اللازم، فإنك بالتأكيد ستحرم منها.

كباقي الأمور الأخرى، تحقيق العدالة قائم على القاعدة المشهورة (أعط وخذ)... إذا دفعت الثمن اللازم فسوف تنال العدالة، والعكس صحيح.

«السلام ليس مطلوبا من أجل العدالة، السلام مطلوب من أجل إقامة الاستقرار والحياة الطبيعية»[3].

أما العقبة الأخرى لتحقيق العدالة فهي هوس الناس بمبدأ العدالة المثالية والمطلقة، لأن العدالة المطلقة غير قابلة للتحقيق،

3- International Labour Organization, <http://www.ilo.org/global/about-the-ilo/history/lang--en/index.htm>, [accessed on July 19, 2015].

فـما يتحصـل عليـه النـاس طبقاً لتصورهم هـو أقل مـن مطالبهم، لهذا وحتـى بعـد أن يظفـر الفـرد بالعدالـة، سـيعتقد مـن ظفـر بالعدالـة بأنـه لم يتـم لـه ذلـك بالقـدر الـكافي، لأن الحقيقـة أنـه في هـذا العـالم، أن الشـخص يمكنـه بلـوغ العدالـة القابلـة للتطبيق أوالتحقيـق، وليس العدالـة المطلقـة (النموذجيـة)، ولهـذا السـبب أنه حتـى عندما يرتقي النـاس عـلى سـلم الإنجـازات، يعتقـدون بأنهـم في درجـة المعوزيـن أو المحرومـين، وهكـذا فـإن حـل المشـكلة هو تخفيـف شـعور الناس من الاضطـراب والاهتيـاج الناجـم بالأحـرى عـن شـعورهم بالظلم.

هنـاك سـجل تاريخـي لاندلاع أعـمال العنف نتيجة ما فعله الشـعور بالضيـم لـدى النـاس، والواقـع أنهـم اعتقـدوا أن كل ما تحصلـوا عليه هو أقـل مـما طالبـوا بـه. لذلك اسـتمروا في الشـعور بالظلـم. عـلى الرغم من أنهـم قـد تحصلوا عبر العدالة على ما يمكـن أن يتحصلوا عليه من خلالها.

إن السـبيل لوضـع نهايـة للعنـف، هـو تحـول النـاس عن الشـعور بالظلـم، وعوضـاً عـن ذلـك لابـد مـن حثهـم عـلى الانخـراط لتحقيـق العدالـة. فتحقيـق العدالـة متيـسر في جميـع الأوضـاع، بينـما العدالـة المطلقـة مسـتحيلة.

ويؤكـد ميثـاق أو دسـتور منظمة العمـل الدولية، على أن«السـلام العالمـي الشـامل يمكـن أن يؤسـس فقـط عـلى العدالـة الاجتماعيـة.»[4] ولكـن هـذه الفرضيـة ليسـت واقعيـة، الحقيقـة أن السـلام يمكـن أن يؤسـس فقـط عـلى قبـول الوضـع القائـم، والذي يـوزاي قبـول الوضع القائـم بالقناعـة، هو الرضا. ومن خلال السـلام سـتفتح أبـواب الفرص، ومـن خـلال انتهـاز تلك الفـرص يمكـن تحقيـق العدالة.

4- International Labour Organization, <http://www.ilo.org/global/about-the-ilo/history/lang--en/index.htm>, [accessed on July 19, 2015].

قوة السلام

غالباً ما يعرّف العلماء السلام بأنه غياب الحرب، وهذا تعريف سلبي، والتعريف الإيجابي يجب أن يكون السلام هو الحالة التي تظهر فيها الفرص الذهبية الكثيرة، إن الدور الأكثر أهمية للسلام هو فتح أبواب الفرص، ومنح كل فرد الفرصة لاستغلال تلك الفرص من أجل بلوغ هدف أو أهداف ما.

الفرص هي الأكثر أهمية في الحياة، فالنجاح يتحقق عندما يتعرف المرء على الفرص ويستغلها بالتخطيط الحكيم، لذلك من الأهمية البالغة إقامة السلام في العالم مهما كان الثمن. فالسلام سيفتح الفرص، وباستغلال تلك الفرص يمكن للمرء تحقيق كل ما يرغب في تحقيقه. وأولئك الذين ينخرطون في العنف يبرهنون على عدم وعيهم بسنن الطبيعة (السنن الكونية).

على سبيل المثال، إذا سئل أولئك الاشخاص المنخرطون في أعمال العنف، ما السبب وراء أفعالهم وعدم اهتمامهم بإحلال السلام؟ فالإجابة المتوقعة من هؤلاء ستكون أنهم على دراية بأن السلام أمر جيد وطيب، ولكنهم قد حرموا من العدالة.

إن تلك الإجابة مثل وضع العربة أمام الحصان، الواقع أنه ما من أحد سيقدم لك العدالة كهبة، فالعدالة نتاج لجهود الشخص بنفسه، أولاً وقبل كل شيء، يجب عليك إحلال السلام بأي ثمن. بعد ذلك، يتوجب عليك بدء مسيرتك تجاه تحقيق العدالة من خلال التخطيط والتدبير الحكيم. هذا هو الطريق الوحيد نحو إحلال العدالة، ولا يوجد طريق آخر لبلوغ هذا الهدف.

بعيـد الحـرب العالميـة الثانيـة قسـم الحلفـاء ألمانيـا بصرامـة إلى جزئـين: ألمانيـا الشرقيـة وألمانيا الغربيـة، هذه الاسـتراتيجية هدفت إلى إضعـاف ألمانيـا عـلى أسـاس دائـم، وتلـك كانـت مسـألة جليـة للظلم. لكـن القـادة الألمـان لم يقومـوا بـرد فعـل، مـا حـدث أنـه تـم إعطـاء فرصـة للسـنن الكونيـة لأداء عملهـا. اتبـاع العمليـة السـلمية والسـنن الكونيـة الخفيـة أدت دورهـا في صمـت لتأسـيس الاسـتقرار والحيـاة الطبيعيـة. وفي آخـر الأمـر سـقط سـور برلـين، وبعـد خمـس وأربعـين سـنة، أصبحـت ألمانيـا دولة موحدة سـنة 1990م. واليوم كلا القسـمين مـن ألمانيـا يشـكلان دولـة واحـدة، بالضبـط كـما كانتـا قبيـل عشـية الحـرب العالميـة الثانيـة. إن ألمانيـا الغربيـة لم تخض الحـروب من أجل الامتـداد نحـو ألمانيـا الشرقية، وكل مـا قام به الألمـان هوتعبيد الطريق نحو السـلام.

إن القـوة الكـبرى للسـلام تكمـن في فسـحه مجـال العمـل للسـنن الكونيـة لتأديـة دورهـا. فـإذا رغبـت في أداء دورك مـن خـلال شـن الحـرب، فإنـه يتوجب عليك خوض الحرب بنفسـك، والسـلام من جهة أخـرى سـيعمل لصالحـه، إذا أوقفـت الحـرب فسـوف يسـود السـلام . وفي هـذه الحالـة مـا نحتـاج إليه هو منح السـنن الكونيـة الفرصة. وفي مثـل هـذا الوضـع سـتؤدي السـنن الكونيـة إلى آثـاراً عاجلـة. والـشرط الوحيـد هـو أنـه عندمـا تبدأ السـنن الكونيـة بالعمل، يجـب على المرء ألا يتدخـل. إذ إن السـلام يتـماشى ويعمـل فقط في بيئة عـدم التدخل، وعندمـا يكـون هنـاك تدخـل سـتتوقف العمليـة الفطريـة. وبالمثـل عندمـا يتـم بـذر البـذور تبـدأ الشـجرة في النمـو تلقائيـاً، وتلـك أيضـاً القـدرة الكـبرى للسـلام. وهكذا فالذيـن يدركون القوة الكامنة للسـلام لـن يواجهـوا أبدا الفشـل.

باستخدام العنف يمكنك اقتلاع شجرة، ولكن استخدام العنف لن يمكنك من زراعة شجرة، وذلك في الواقع شبيه بالحياة الإنسانية. وفي الحياة البشرية الحرب لا تقود إلا للدمار، بينما السلام يحمل هدفاً إيجابياً. ولا يمكن القيام بأي عمل بناء إذا كان هناك عنف، في حين أن السلام يمهد للأعمال البنّاءة. فالسلام يمهد الطريق لبناء الأمة عبر السبل الصحيحة والسليمة.

الحرب تبدأ بالغضب وتنتهي بالغضب، وهي لا تحمل أي ملمح بناء أو مظهر صحي لا عند إندلاعها ولا عند انطفائها. أما السلام فهو حالة صحية في كل الأحوال وفي كل المجالات يقود إلى النتائج الإيجابية، تماشياً وانسجاما مع السنن الكونية. ولهذا السبب عندما يختار المرء الأسلوب السلمي، فإن العالم كله بأرضه وسمائه يدعمه ويكون في صفه. وأما إذا اختار المرء أسلوب العنف فإن الكون بأرضه وسمائه سيقف في وجهه.

الفصل الثاني:
بزوغ عصر السلام

عصر انتهاء الاحتكارية

خلـق اللـه -تعـالى- الإنسـان وأسـكنه كوكـب الأرض، ومنحه كامل الحريـة لاسـتخدامها بانضبـاط وبمحـض إرادتـه، ولكـن الإنسـان فشـل في تحقيـق ذلـك. إن الجشـع للسـلطة السياسـية وتحقيـق المصالـح الشـخصية والاقتصاديـة وعـدم التسـامح الدينـي ظـل النظـام السـائد للحياة، واسـتمر هذا الوضع لآلاف السـنين، وهذا كان السـبب الأسـاس لسـيطرة ثقافـة الحـرب خـلال العقود السـابقة.

تلـك الظـروف والأحـوال تعارضت مع سـنة الله في الخلـق، فطبقاً لحكمـة اللـه مـن وراء الخلـق، يتوجب بالـضرورة حصـول كل رجل أو امـرأة عـلى بيئـة حـرة للتطويـر أوالارتقـاء بشـخصيتهما. ولكـن بمـرور الزمـن أصبـح هـذا التدبـير معطـلاً... ولكـن إرادة الله صححت مسـار التاريـخ بينـما حفظت للإنسـان كامـل الحرية.

تطلـب الأمـر تدبـيراً إلهيـاً في غايـة الدقـة والتعقيـد عـبر عصـور طويلـة ليبلـغ مـداه، ويحقق أهدافه ويشـكل الزمن الحـاضر أوج ذلك التدبـير الإلهـي ومنتهاه.

إن الخيـارات المحـددة المتاحـة في الأزمنـة الأولى، أفضـت إلى غلبة الاحتـكارات المطلقـة عـلى كافة الميادين: كالسـلطة السياسـية والفرص الاقتصاديـة والمجـال الدينـي، كل الأمـور تم احتكارها مـن قبل جماعة أو أخـرى، وفي مثـل هـذا الوضـع أراد الخالـق –تعـالى- كـسر الاحتـكار عـن كل مصـادر الحيـاة، حتـى يتعـين حصـول كل رجـل وامـرأة عـلى الحريـة في الاختيـار. لذلـك الغـرض بـدأ اللـه –تعـالى- في عمليـة تدبير كامـل للتاريـخ، وهكذا يمكـن أن نقرَّ أن الحضارة المعـاصرة هي تتويج للتدبـير الإلهـي وهـي عمليـة زمنيـة طويلة مـن التدبـير الإلهي.

إن عـصر الديمقراطيـة -اليـوم- رسَّـخ انعـدام الاحتكاريـة للقـوة السياسـية والتصنيـع الحديـث. وكان نتـاج عـدم الاحتكاريـة وفـق مصطلحـات الفـرص الاقتصاديـة والحريـة الفكريـة للعـصر الحديـث، جعلـت مـن الممكن إنهـاء احتكار وجهـة النظر الدينية، كـما أن العلم الحديـث قـاد إلى إنهـاء احتكاريـة نظـم العقائـد القاسـية.

تلـك الظاهـرة التـي أطلـق عليهـا الكاتـب الأنجليـزي جـي. اف. ويسـت، بحـق «الثـورة الفكريـة العظيمـة»[5]، إن إنهـاء احتكاريـة كل أنـواع الاحتـكار المطلـق اسـتوجبت ترسـيخ ثقافـة السـلام. بعـد إنهاء الاحتكاريـة صـارت كل الأشـياء في متنـاول الجميـع، ولهـذا لم يعـد الانغـماس في العنـف ليحقـق للمـرء غاياتـه جديـرًا بالاهتـمام.

إن الحضـارة الحديثـة أنهـت فعليـاً الاحتـكار المطلـق لـكل فـرص الحيـاة، فأصبـح مـن الممكـن لـكل شـخص أن يكـون حـراً للقيـام بمـا يرغـب في تحقيقـه في أي حقـل يختـاره أو تختـاره، غير أنـه بالرغم من تطـور الحضـارة الحديثـة، فإننـا نـرى أن ثقافـة العنـف مازالـت ماثلة في بعـض المواطن؟ والسـبب هوانعـدام الوعي بهذا التحـول التاريخي.

وعـلى سـبيل المثـال، إذا أراد شـخص مـا الحصـول عـلى السـلطة السياسـية فلـن يكـون لـه مـن حاجـة لشـن حـرب. وفي الزمـن القديـم تغيـير الحكومـات لم يكـن ممكنـا إلا عـن طريـق القتـال وإزالـة الحاكم عـن عرشـه، لكـن في ظـل الديمقراطيـة صـار مـن الممكن اعتـلاء منصب الحـزب الحاكـم مـن خـلال الانتقـال السـلمي عـبر إجـراء انتخابـات، إن تلـك التطـورات جعلت العصر الحديث عصراً للسـلام، ولكن للاسـتفادة مـن تلـك الفرص العصرية فـإن الأمر يحتاج للتعليم، لذلك السـبب نرى

5- John Frederick West, The Great Intellectual Revolution, New York, The Citadel Press, 1966.

أن المجتمعات المتعلمة، يتم فيها التغيير بشكل سلس وعبر عملية سلمية من خلال إجراء الانتخابات، بينما في المجتمعات الأقل تعليماً مازال الناس في قبضة عقلية متخلفة عن العصر، ومازالوا يتقاتلون من أجل الاستيلاء على السلطة.

والأمر يصدق بالمثل فيما يتعلق بالفرص الاقتصادية، فاقتصادنا القديم كان قائما بالأساس على الزراعة، عن طريق السيطرة واغتصاب أراضي الغير ليتمكن المرء من زيادة إنتاجه، أما اليوم فإن المجال الواسع للصناعة فتح على مصراعيه، ويمكن للمرء تحقيق النجاح باستغلال الفرص الهائلة المتاحة في هذا الميدان.

إن إنهاء الاحتكارية للموراد في العصر الحديث هو نعمة وبركة عظيمة، ذلك أنها جعلت أسلوب أومنهج العنف غير ذي نفع وجدوى. الآن عبر الوسائل السلمية كل شخص صار قادراً على تحقيق النجاح على درجة عالية. إن إنهاء عصر الاحتكارية وقدوم عصر نهاية الاحتكارية- بتعبير آخر- هو إنهاء لعصر العنف وحلول عصر السلام.

إن عصر الاحتكارية قد أزال عملياً خيار الحرب، وهكذا فإن خيار الحرب الآن لن يظهر تحت أي نوع من الضرورة، بل إن خيار الحرب هو فقط نتيجة سوء الاستخدام الجاهل للحرية.

الحضارة الغربية

هناك عدة آيات في القرآن الكريم تتضمن تنبؤات عن أحداث مستقبلية. على سبيل المثال، التنبؤ بانتصار الروم على الفرس، ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، (سورة الروم 1 - 3)، الذي تحقق في بضع سنين كما ذكر في القرآن، ولكن التنبؤ الأكثر دلالة ووضوحا

والـذي تحقـق بوضـوح هو ظهـور الحضـارة الغربية، تلـك الحضارة المؤيـدة أو المنـاصرة للقيـم الإنسـانية في فـترة متأخـرة مـن التاريـخ البـشري، قـال تعـالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾، (سـورة فصلـت 53).

هـذه الآيـة تتنبأ بوضـوح عـن التطـورات التـي حدثـت في الأمـم الغربيـة بعـد ألف سـنة من نـزول الوحي القرآني، إن الحضـارة الغربية في الواقـع أسسـت عـلى العلـم، ويوجد ملمحان رئيسـان لذلـك، ملمح نظـري وآخـر عمـلي أو تطبيقي.

الملمـح التطبيقـي للحضـارة الغربيـة كـما يطلـق عليـه في العـادة الملمـح التكنولوجـي، هـو الملمح المذكـور في الحديث النبـوي التالي: «إن اللـه ليؤيـد هـذا الديـن بالرجـل الفاجر»[6].

والفاجـر هنـا يعنـي الشـخص اللاديني (غـير المتدين)، هـذا القول النبـوي في الواقـع نبـوءة لظهـور الحضـارة الغربيـة، التـي كانـت في جوهرهـا منـاصرة للقيـم الإنسـانية، أي أنهـا سـتكون مفيـدة للبشرية والديـن الإلهـي كذلك.

إن الحضـارة الغربيـة ليسـت ملكيـة قاصرة على جنـس أو مجتمع معـين. بـل إنهـا تديـن بالكامـل لاكتشـاف قوانـين الطبيعـة المسـترة، والتقـدم التكنولوجـي الذي اسـتفاد ويسـتفيد منه البـشر جميعا دون اسـتثناء. وعـلى سـبيل المثـال، إن اكتشـاف قوانـين الطبيعـة أنتج عصرًا جديـدًا للاتصـالات، ومـن خلالـه يمكـن أن ينتفـع به كل شـخص، بما في ذلـك المناصريـن والمؤيديـن لدين الإسـلام.

6- متفق عليه، رواه البخاري ومسلم، صحيح البخاري، حديث رقم (3062).

إن تطـور الحضـارة الغربيـة لـه جانبـان رئيسـان، أحدهـما متصـل بالثـورة الفكريـة التـي ظهـرت في عـالم السياسـة والاجتـماع. على سـبيل المثـال أحـد أهم الخطى في هـذا الاتجاه كانت اسـتبدال النظام الموناركي (الملكيـة المطلقة) بالنظـام الديمقراطي، والجانب الآخـر يختص بالفوائد التـي تولـدت عـن تطـور وسـائل الاتصـال الحديثـة. ذلـك الأمـر أعطـى النـاس معرفة متعمقة وكاملة بالجغرافيا، وسـهل عليهم السـفر والتنقل مـن مـكان لآخـر. كـما أن آلـة الطباعـة أيضـاً سـهلت انتقـال الأفـكار وشـيوعها حـول العالم. فالتقنيـة الالكترونية حولت بحق العـالم إلى قرية كونيـة. والآن أصبـح مـن الممكـن الـكلام مـن أي جزء من العالم لتسـمع وتشـاهد مـا يـدور في مكان آخـر بعيـد كل البعد.

الفائـدة الكـبرى مـن تلـك التطـورات الحديثـة هـو أنـه لأول مـرة عـلى مـر التاريـخ البـشري يتـم إطـلاق أو إعـلان عـصر السـلام. أمـا في العصـور المبكـرة لهـذا التاريـخ، فيتـم خـوض معـارك دمويـة مـن أجل تحقيـق أيـة غايـة، فـكل الأمـور كانـت تقـرر في أرض المعركـة، ونظـراً لذلـك فـإن أناسـاً كثيريـن مـن بنـي البـشر غـادروا هـذا العـالم دون القيـام بالـدور المنـوط بهـم.

في أعقـاب التطـورات الحديثة، ولأول مـرة في التاريخ البشري، صار مـن الممكـن تحقيـق أي هـدف مهـما كان صغـيراً أو عظيـماً من خلال الوسـائل السلمية.

إن تدبـير الخالـق جـلّ وعـلا، البعيـد والطويـل المـدى، قـاد إلى إحـداث ثـورة في التاريـخ البـشري، ليضـع نهايـة لزمـن الحـرب. وفي هـذا السـبيل، صـار مـن الممكـن اليـوم عـن طريق اسـتخدام الوسـائل السـلمية بلـوغ كل الغايـات بطريقـة هي أفضل من اسـتخدام الشـدة والعنـف والـذي لا يحقـق أي شيء ذي قيمـة.

إنهـا أكـبر إنجـازات العـصر الحديـث، لكـن أولئـك الذيـن اختاروا أسـلوب الحـرب والعنـف في عـالم اليـوم، فإنهـم يثبتون فقـط أنهم غير مدركـين وواعـين بالكليـة بالتحـولات التاريخيـة الحديثة، وهـذا الجهل التـام ينعكـس في اسـتخدامهم المتهـور للسـلاح عـن طريـق انحيازهـم أوميلهـم للعنـف، فاقترفـوا أبشـع جريمـة في تاريـخ البشرية.

إن أولئـك الذيـن أهملـوا وتخلـوا عـن المنهـج السـلمي في القـرن الواحـد والعشريـن، واختـاروا الانحيـاز لاسـتراتيجية البنـادق والقنابـل، يبرهنون فقط على أن كل ما يسـتطيعون أن يكتسـبوه وينالوه لأنفسهم وللآخريـن هـو تاريـخ مـن المـوت والدمـار، سـتنطبق عليهـم في الحيـاة الآخـرة الآيـة القرآنيـة الكريمـة: - ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، (سـورة البقـرة 85).

عصر البدائل

في الأزمنــة القديمــة، كان أمــام النــاس الطامحــين ميــدان وحيــد يمكنهـم مـن خلالـه تحقيـق طموحاتهـم، ولكـن العـصر الحديث شـهد تحـولا هائـلا في هـذا السـياق، نحـن الآن نعيـش عـصر البدائـل وهنـاك العديـد مـن الخيـارات عوضـاً عـن الانخـراط في المعـارك.

للشـخص الطمـوح هنـاك عدد من البدائـل السـلمية المتاحة، وإن تلـك المكاسـب أو الثمـرات التـي يتوقـع النـاس الحصـول عليهـا فقـط مـن خـلال الحـرب هـي الآن مـن الممكـن بلوغهـا وبدرجـة أكـبر عـن طريـق اسـتخدام الوسـائل السـلمية، ومـن أجـل إيضـاح تلـك النقاط، أرغـب في اسـتحضار مثالـين متماثلـين: كان الحكـم المغـولي في الهنـد حكـم السـلالات الحاكمة، وكان أوررنغزيـب (1618 - 1707م) الحاكم

السـادس لتلـك السـلالة الحاكمـة، وكان هو وأخوه دار شـاكون (1615 - 1659م)، يحمـلان برامـج وأهدافا مختلفـة، في ذلك الزمان كان هناك سـبيل وطريـق وحيـد متـاح لحل الخلافـات ألا وهـو القتال، بنـاءً على ذلـك نشـب القتـال ولقـي (دار شـاكون) ومنـاصروه الهزيمـة وقتلـوا.

في الوقــت الحــاضر هنــاك حزبــان رئيســان في الهنــد ذاتهــا، هــما حــزب المؤتمــر وحــزب بي جــي بي. وكلا الحزبــين يمتلــك رؤيــة وبرامــج مختلفــة، ولمــا كانــت الهنــد اليــوم دولــة ديمقراطيــة، فــإن كلا الحزبــين يتنافــس ويتبــارى في الانتخابــات لتقريــر مصيرهــما. وهــذا المبــدأ يــؤدي فعلــه، وفي مايــو 2014م، صبيحــة الانتخابــات العامــة تغــيرت القيــادة السياســية للهنــد بصــورة ســلمية.

هــذا البديـل متـاح لـكل البلـدان، حتـى في تلـك الـدول التـي تنخـرط فيهـا بعـض الجماعـات في مسـتنقع العنـف. حيـث تـرد إلى أسـماعنا أخبـار عـن دمـاء تسـفك. هـذا الوضـع ناجـم عـن عـدم إدراك قياداتهـا للتغيـير الحاصـل في هـذا الزمـان، أولئـك القـادة المنشـغلون بأعـمال العنـف في تلـك البـلاد يعملـون تحـت تأثـير عقلية قديمـة. وطبقـاً لتـك العقليـة والمـزاج، فإنهـم يعرفـون فقـط نمـوذج الملكيـة القديـم، وليـس لهـم علـم بالنمـوذج الديمقراطـي المعـاصر.

عـلى الرغـم من النتيجـة المروعة لهـذا النوع من النضـال العنيف، فـإن طريقـة تفكـير أولئك القادة رسـخت بشـكل جذري هـذا العنف، فصـاروا غـير قادريـن عـلى إعـادة التفكـير في اسـتراتيجيتهم. في الوقت الحـاضر وقـع عـدة قـادة ضحايـا للعنف مثل صـدام حسـين المتوفى في عـام 2006م، وأبي بكـر البغـدادي المتـوفى في 2014م (دون تأكيـد)، أبي آلا العفـري المتوفى 2015م.

إن حلول عصر البدائل المتعددة شكل علامة إيجابية جداً، إنه يعني تحول التاريخ من الحرب إلى السلام، في القرن الحادي والعشرين وصل هذا العصر إلى منتهاه، والآن لم يعد هناك حاجة لتبني ثقافة البندقية والقنبلة، وكل شخص يرغب في بلوغ طموحاته يجب عليه إدراك روح العصر. وقبل القيام بأي عمل يتوجب عليه التفكر ملياً في الأوضاع بصورة شاملة كاملة، وسوف ينتهي بالتأكيد إلى فهم حقيقة الخيار الأفضل ألا وهو الوسائل السلمية.

أحد الأمثلة المشابهة نجده في تركيا المعاصرة، مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت تركيا جزءاً من الأمبراطورية العثمانية، التي ضمت ما يقارب الثلاثين دولة من الدول المعاصرة، ولكن خلال الحرب العالمية الأولى، تفككت الأمبراطورية العثمانية وانتهى التوسع السياسي التركي.

وهكذا، فإن قادة تركيا المعاصرة صبيحة تفكك أمبراطوريتهم اتخذوا بعض الإجراءات الصارمة، وبحثوا عن بديل لخيار التوسع السياسي، ألا وهو تطوير العلوم والتكنولوجيا في بلادهم، ونتيجة لذلك وخلال فترة وجيزة، ظهرت تركيا من أكثر الدول تقدماً في العالم الإسلامي.

في الوقت الحاضر يعيش المسلمون الانقسام السياسي الذي يتمثل في وضعية أو سياسة الحاكم والمحكوم. وجد المسلمون أنفسهم في مرتبة أدنى وهي مرتبة المحكومين التي لم يتقبلوها، لذلك فهم يعملون من أجل تغيير الوضع القائم واستعادة مرتبة الحاكم.

هذا التفكير الثنائي غير واقعي بالمرة، فهم غير مدركين لوجود خيار ثالث متاح أمامهم عليهم استغلاله والاستفادة منه. هذا

الخيار بالغ الأهمية لدرجة أنه بتطبيقه والعمل في ظله سيكون بوسعهم إقامة أمبراطورية غير سياسية.

المشكلة الحقيقة أن المسلمين اليوم يجهلون حقيقة أن العصر الحاضر هو عصر الديمقراطية، وفي هذا العصر تقلصت الحكومة لتقتصر على القيام بدور الإدارة، ولكن بعيداً عن الدور التنظيمي الإداري، توجد مجالات أكبر وأكثر أهمية مفتوحة أمام المسلمين، على سبيل المثال، التعليم، والصحافة، ووسائل الاتصال، و مجالات الاقتصاد والاستثمار، وكذلك عمل الدعوة وتبليغ رسالة الله للناس. لو تخلى المسلمون عن مجال النشاط السياسي وكرسوا أنفسهم للمجالات غير السياسية المذكورة آنفاً فسوف يحسنون صنعاً، عند ذلك يمكنهم بناء أمبراطوريات عالمية مستقلة، أكبر من امبراطوريتهم السياسية السابقة.

والحق أن العصر الحاضر شهد انفجارًا في البدائل في كافة المجالات، والآن لا حاجة للتشاؤم أو الانشغال بالاحتجاج والعنف والقتال. لكن كل شخص يمكنه ببساطة التوصل لمعرفة أن هناك بديلا له، وأنه عن طريق استغلاله يمكنه تحقيق النجاح في أي مسلك من مسالك الحياة.

في الوقت الحاضر، إن عبارة مثل «النضال» أو «الكفاح المسلح»، ربما ما زالت تظهر في القاموس، ولكن لم يعد لها معنى حقيقي، مثل الكلمات القديمة البالية، فكلمة النضال المسلح صارت أيضاً كلمة قديمة. لقد أصبح الخطاب بمصطلحات الحرب والعنف ضرباً من الفوضوية.

إن «القتال» في العالم المعاصر مفهوم قديم عفا عليه الزمان. وإذا أصبح المقاتلون والمليشيات واعين بهذه الحقيقة، فإنهم من

المؤكـد سـيلقون بأسـلحتهم بعيـداً، ولـن تجـد أسـلحتهم مكانـاً لها إلا في المتاحـف.

عصر الحضارة

إنّ اسـتخدام العنـف مـن بقايا ثقافة المجتمع البـدائي، إذ لم يعرف النـاس إلا سـبيلاً وحيداً لتسـوية أمورهم، وذلـك باللجوء للعنف.

يحـكى أنـه في العصر الحجري تشـاجر شـخصان وتراشـقا بالحجارة والغضـب يعلوهـما، وعنـد تصـادم حجريـن ببعضهـما البعـض نجمت عـن ذلـك شرارة ناريـة، راقـب الشـخصان الـشرر الناجم عـن التصادم، وتناسـا الخصومـة والشـجار، وشرعـا في التفكـير مليـاً في ظاهـرة الشرر. ومـن تلـك التجربـة اكتشـفا أن هنـاك شـيئاً مـا مسـتتر وخفـي في الصخـور، ومنفصـل عنهـا، ذلك أن الصخـور لا ضوء لهـا، ولكن ما نجم عـن تصادمهـما كان ضـوءاً، فالصخـور صلبـة، بينـما الضـوء «ناعـم»... لقـد قيـل إن مثـل تلـك الحـوادث كانـت وراء سلسـلة متواصلـة مـن الدراسـة لقوانـين الطبيعة.

لقـد تطلـب الأمـر مـن الإنسـان آلاف السـنين لاكتشـاف مـا يوجـد مـن قوانـين مسـتترة في الطبيعـة، ومـن خـلال فهمهـا تمكنـا من تسـخيرإمكانات الطبيعـة مـن أجـل مصالحنـا. إن اكتشـاف القـوة البخاريـة مثـال لإمكانـات الطبيعـة المخفيـة وغـير المحـدودة، وبالمثـل فـإن السـيارة والطائـرة تـم اكتشـافهما باسـتخدام مصـادر طبيعيـة.

بهـذا الأسـلوب أو الطريقـة، وبعـد فـترة زمنيـة طويلـة صـار مـن الممكـن تحويـل المـادة إلى تكنولوجيـا، تلـك العمليـة اسـتمرت دون انقطـاع مع انشـغال قسـم كبـير من البشريـة فيها، ولقـد انقضى وقت

طويل ما بين اختراع العجلة وتطوير وسائل الاتصال الحديثة. إن نتائج الكثير من الاكتشافات والاختراعات خلال تلك الفترة، أسهمت بصورة كبيرة في ظهور الحضارة المعاصرة التي غيرت بالكامل نمط الحياة الإنسانية وأسلوبها.

إن الميزة الأبرز للعالم المتحضر هي أنها مكنت الإنسان من الخروج من عصر القساوة والشقاء، وقادته إلى حياة مريحة. إن المدن الحديثة تقدم المتعة، وتجعل ذلك النوع من الحياة متاحاً.

إن الحضارة الغربية منحت - من جميع جوانبها- حياة مريحة للناس، في السفر والتنقل المريح والاتصالات الملائمة ومؤسسات حسنة التجهيز، وباختصار إن كل أنشطة الحياة صارت مريحة ممتعة.

إن عصر الحضارة الحديثة أنهى فعلياً وبجدارةعصر الحرب إلى النهاية. حالتا الحرب والعنف في هذا الزمان صارتا من الأمور التي لاعلاقة لها بالزمن المعاصر، إنها كمحاولة إضرام النار في المطبخ باستخدام صخرتين بدلامن استخدام عود الثقاب أو ولاعة.

في أيامنا هذه، لا أحد يوقد ناراً في المطبخ بتلك الطريقة البالية، ولكننا نشاهد حتى اليوم، نزوع البعض إلى خيار الحرب والعنف على الرغم من كونه خياراً غير حضاري ولا صلة له إلا بالعصور البدائية.

رحلة الحضارة

يندلع العنف عندما تخرج مشاعر الغضب عن السيطرة. في الحياة يواجه الناس تجارب غير مرغوب فيها في معظم الوقائع اليومية، وهذا جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، الأمر الذي يولد

نوعـاً مـن الغضـب العاصـف لـدى معظم البـشر، وعندمـا تظهر بعض الأعمال الاسـتفزازية تشـتعل مشـاعر الغضـب الدفينة وتـؤدي لأعمال العنـف، وفي بعـض الأوقـات للحرب. والحـل الدائم لهذا البـلاء الكارثي يكـون عـن طريـق إيجـاد أسـلوب فاعـل في كبح وقـف ثـورة الغضب.

الأسـلوب الأفضـل يكـون بتذكر المآثـر التاريخيـة للبشريـة عموماً، وذلـك الإدراك سـيعمل كمتحكـم داخـلي وصـمام الأمـان للعنف.

في الوقـت الحـاضر، نحـن نعيـش في عـالم متحـضر، ونتمتـع فيـه بأنـواع هائلـة مـن الخدمـات وسـبل الراحـة. ولكـن تلـك الخدمـات لم تكـن متاحـة أو ممكنـة في العـصر المبكـر للحضارة الإنسـانية، فكيف ظهـرت إلى الوجـود؟ إنهـا النتيجـة الحتميـة لمسـيرة تطـور طويلـة.

عـاش الإنسـان البـدائي حيـاة قاسـية، تاريخياً تسـمَّى تلـك المرحلة بالعـصر الحجـري، في تلـك الحقبـة مـن الزمـن كان كل شيء في شـكل صورتـه الأوليـة، ثـم بـدأ الإنسـان رحلتـه الطويلـة نحـو الحضـارة، امتطـى ظهـور الخيـل بدايـة، ثـم اخـترع العجلـة، وفي نهايـة المطـاف - بواسـطة جهـد بحـث علمي طويـل- طورَّ الإنسـان التقنيـة تدريجياً فاخـترع السـيارة والطائـرة بديلا للسـفر. البشرية بهذا المعنـى انتقلت مـن الوسـائل البدائية لتحقق الرفاهية بواسـطة التكنولوجيـا الحديثة. لقـد كانـت رحلـة الحضـارة رحلـة طويلة شـملت كل البشريـة بصورة مبـاشرة أو غـير مبـاشرة، قـدم النـاس تضحيـات جمـة جيلا تلـو الآخر، لقـد أنفقـوا أعمارهـم وطاقاتهـم لتطوير أشـياء سيسـتخدمها الجميع. بهـذه الطريقـة النـاس زرعـوا حديقـة الحضـارة، ونحـن نجنـي اليـوم ثمارهـا، ولهـذا نحـن نديـن للبشريـة جمعاء.

إن صيغـة «أحبـوا جيرانكم» صيغة جيدة. وهي الأسـاس الحقيقي للأخـوة البشريـة العالميـة. ولكـن لابـد أن تقـوم هـذه الصيغـة عـلى أسـاس عقـلي، على ضوئـه يقتدى ويتبع هـذا المبدأ في الحيـاة الواقعية أو الفعليـة. إن الإنسـان كائـن ينشـد التبريـر، فهـو يطلـب عقلنـة كل أفعالـه، بمـا في ذلـك أفعال الحب والشـفقة عـلى الآخريـن. إن المفهوم المذكـور آنفـاً «التطـور الحضـاري» هـو الـذي يمنـح أساسـاً قويـاً لمثـل ذلـك النـوع مـن التفكير.

يتجنـب المـرء عـلى الدوام شـن الخصومـة تجاه والديـه، لأنه يعلم بالمنـة والفضـل والمسـاعدة التـي قدماهـا لـه، وإن النـاس عـلى درايـة بهـذا الفضـل والمنـة التـي يقدمهـا الوالـدان، ولكنهـم لا يدركـون منـة أوفضـل البشريـة الأعظم.

إذا أدركـوا فضـل أو منـة الإنسـانية، فإنهم سـيحبون الإنسـانية أكثر مـن حبهـم لآبائهـم وأمهاتهم، ولن يجعلـوا من البشرية خصـماً أو عدوا لهـم. إن الإحسـاس بالخصومـة تجـاه الغير هو ما يقـود إلى العنف، وإنه إذا تـم إنهـاء العـداوة والخصومـة، فإنه لـن يتم اللجوء أبـداً للعنف.

ولمـا كان الإنسـان مخلوقـاً باحثـاً عـن التبريـر، فإنـه بـدون التبرير لا يمكنـه القيـام بـأي شيء، إذا أدرك النـاس الفضائـل والمنـن للبشريـة عـلى حياتهـم عـبر التاريـخ، فذلـك يعـد بمثابـة تبريـر ولـن ينخرطوا في العـداوة أبـداً مـع الآخريـن. وعوضـاً عـن ذلك سـيتبعون المبـدأ القائل «أحبـوا الجميـع»، الأمـر الـذي يقـدم الأسـاس العقـلي الحقيقـي مـن أجـل السـلام الاجتماعي.

كل تلـك السـلع الاسـتهلاكية التـي نتحصـل عليهـا مـن مراكـز التسـويق، وكل تلـك التسـهيلات التـي تجعـل حياتنـا مريحـة في البيـت

وخارجـه لم تنجـز بأيـدي المسـتهلكين الحاضريـن. لقـد طورتهـا البشرية عـبر فـترة زمنية طويلة، ونحن نسـتخدمها دون أدنى تفكـير في مصادرها، وإذا اعتبرنـا تلـك الأشـياء منة وهبة من البشرية، فسـوف نعتبر الآخرين محسـنين بـدلاً مـن اتخاذهـم أعـداءً وخصومـاً، عندها سـتختفي وتزول كل الأفـكار السـلبية تجـاه الآخرين، وسـنحيا بروح عامرة بالشـفقة على الآخريـن، إن التفكير بهذه الطريقة سـيقتلع السـلبية التـي تعزز وتنمي مفهـوم «نحـن والآخـرون، الـذي يـؤدي أحيانـاً إلى العنف.

إن الشـخص الـذي ينظـر للأمور مـن هذا المنظور، سـوف يدرك أن أفـراد البشريـة لديهم دور منوط بهـم في بقائه ووجوده.

حتـى الآن مـازال المـرء يعمـل تحـت تأثـير وهـم بأنـه في حياتـه الدنيـا لا فضـل عليـه إلا مـن عائلتـه، ولكـن الآن سـيفهم أن البشريـة لعبـت دوراً أكـبر في حياتـه، وسـوف يقدم عـلى التفكير بأنـه لولا فضل الإنسـانيةعليه فإنـه ليـس لـه أيـة قيمة.

يحمـل كل إنسـان مشـاعر وعواطـف قويـة لـكل فـرد مـن أفـراد عائلتـه، ولكـن إذا نمـا عنـده ذلـك التفكـير الكـوني فسـوف يشـعر بعاطفـة قويـة لـكل البشريـة، وسـوف يكتشـف قـول المسـيح عليـه السـلام: «أحبـو أعداءكـم»7 بمعنـى: أحبـوا الجميـع، لأن الجميـع هـم مـن المحسـنين، وأنـه لا يوجـد أعـداء».

اجعل من عدوك صديقاً

خـلال زيـارتي للولايـات المتحـدة في شـهر يونيـو 2011م، كنـت قد دعيـت لكنيسـة أمريكيـة في فيلادلفيـا لإلقـاء محـاضرة عـن أهميـة

7- The Bible, Matthew 5: 44.

السـلام. عندما انتهيت من إلقاء المحاضرة سـألني عالم مسـيحي:»هناك تعليـم مشـهور في الكتـاب المقـدس:» أحبـوا أعداءكم»[8]،هـل يمكـن أن تشـير لأيـة آيـة تحمـل ذات المعنـي في القـرآن؟ ، قلـت: «نعـم، يمكنك قـراءة الآيـة رقـم :34، مـن سـورة فصلت.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

إن هـذه الآيـة تقـوم عـلى القانـون الفطـري الطبيعـي. طبقـاً للقانـون الطبيعـي لا يوجـد لا صداقـة دائمـة ولا عداوة دائمـة، والناس يصنفـون في إحـدى المقامـين: بعضهـم هـم أصدقـاء فعليـون، والبعض الآخـر أصدقـاء محتملـون، وعلى المرء أن يكتشـف هـذه الحقيقة وإنه عـبر التخطيـط السـليم يجـب عليـه محاولـة تحويـل هـذه الاحتمالية إلى واقـع.

إن أولئـك الذيـن يقومون بأعمال العنف باسـم الجهـاد يميلون إلى أخـذ الأمـور مـن مدلولهـا الظاهـري، وذلك يعنـي أنه إن ظهر شـخص مـا في ثـوب العـدواة، فهـم يعلنونـه فـورًا عدواً، ويبـدأون حربـاً دامية ضـده، وهـذا مثـال عـلى فشـلهم في النفـاذ إلى بواطـن الأمـور، ولـو أنهـم نظـروا إلى الأمـور بعمـق وتـروى، لأدركـوا أن مـن نظـروا إليهـم أعـداء لهـم، فإنهـم في حقيقة الأمر، مـن الممكن والمحتمـل أن يصبحوا أصدقـاء مقربين.

ولهـذا عوضـاً عن شـن الحـرب ضدهـم، فإنه كان يتوجـب عليهم جعلهـم أصدقـاء من خلال العمـل الدعوي السـلمي، وذلك عن طريق تبليـغ رسـالة الله لهم.

8- The Bible, Matthew 5: 44.

طبقـاً للقانـون الفطـري، فـإن كل رجل وامـرأة هما مـن ذرية آدم وحـواء، وهـذا يعنـي أن كل الجنس البشري يشـترك في جد أعلى واحد، وهـذا يعنـي أن البشريـة هـي عائلـة كونيـة (عالميـة). كل الرجـال والنسـاء هـم إخـوة أو أخـوات برابطـة الدم.

في الوقت الحاضر، هذه الظاهرة البيولوجية صارت حقيقة علمية ثابتـة، والآن لم تعـد قصـة آدم وحـواء عليهـما السـلام قصـة أسـطورية غامضـة، وإنما حقيقـة واقعية أكدتها البحـوث الانثروبولوجية.[9]

إن قبـول تلـك الحقيقـة البيولوجيـة، -عـلى الأقـل مـن الناحيـة النظريـة- جعلـت من الممكـن أن يعيش الرجال والنسـاء عائلة عالمية، بـدلاً مـن العيش جماعـات متصارعـة. لا يوجد الآن تبريـر حقيقي لأي نـوع مـن الحـروب القبليـة أو القوميـة أو غيرهـا بـين أفـراد المجتمـع الإنساني.

نحـن قلما نسـمع بانـدلاع حرب بين أبنـاء العائلة الواحـدة، نظرياً ذلـك مـا يجـب أن يكـون حقيقـة وواقعـاً بـين البشريـة جمعـاء، لأنـه – طبقـاً للبحـث العلمـي - كل البشريـة عائلـة واحـدة، ولذلـك يجـب أن تتوقـف وتنتهـي كل أنـواع العـداوات القديمـة، لقـد حـان الوقـت لتعيـش البشريـة عـلى الأرض في تناغـم كعائلـة واحـدة، إن العيـش في تناغـم لم يعـد مجـرد مبـدأ أخلاقـي، فضـلاً عـن ذلـك، هـو أسـلوب في الحيـاة، إنهـا الحقيقـة التـي أثبتتهـا الدراسـات العلمية.

في العـصر الحـالي هجـر المجتمـع العلمـي العديـد مـن النظريـات القديمـة، عـلى سـبيل المثـال، نظريـة مركزيـة الشـمس، القائلـة بـأن الشـمس مركـز الكـون، حلـت محـل النظريـة القديمـة الداعيـة بـأن

9- “The Search for Adam and Eve,” Newsweek, January 11, 1988.

الأرض هـي مركـز الكـون، والمنهـج والأسـلوب نفسـه قابـل للتطبيـق في مسـألة الحـرب والسـلم، إن مطالـب التقييـمات الواقعيـة للشـؤون الحاليـة والتفكـير العلمـي يجـب أن يلـزم النـاس أن يتخلواعـن خيـار العنـف واختيـار الوسـائل السـلمية عـلى أنهـا الخيـار الوحيـد عملياً.

إن حقيقـة الأصـل المشـترك اسـتبعدت إلى الأبـد معادلـة «نحـن والآخـرون»، والآن المعادلـة الوحيـدة الصالحـة هـي تلـك التـي تقـوم عـلى مفهـوم «نحـن ونحـن». شـن الحـروب هـو بمثابة أن يشـن المرء حربـاً عـلى أفـراد عائلته وليس عـلى مجموعة أخرى غريبـة، إن الحرب اليـوم هـي فعل لعصر ماقبل التحـضر، وليس عصر الحضـارة الحديثة.

هـذه الحقيقـة الكونيـة جـاء ذكرهـا في القـرآن الكريـم في قولـه تعـالى: ﴿ أَنَّـهُ مَن قَتَـلَ نَفْسًـا بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّـاسَ جَمِيعًا وَمَـنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، (سـورة المائـدة 32).

إن الحرب لها نتيجة خطيرة واحدة ألا وهي قتل الآخرين.

الحـرب في حقيقتهـا، فعـل قتـل جماعـي، ومـن هـذا الاعتبـار فـإن الحـرب هـي أسـوأ أنـواع الجرائـم شـناعة، و بعبـارة أخرى، فـإن الحرب هـي القتل والقضاء على البشرية، والسـلام يعنـي حفظ الحياة للبشرية.

إنـه مـن الواضـح مـن خـلال السـياق السـابق أن الخيـار الوحيـد الـذي نملكـه أمامنـا ليـس اللجـوء للعنـف، بـل إحـلال السـلام.

إن قتـل النفـس البشريـة ليـس كمثل قتـل حيوان، إن قتل إنسـان هومثـل قتـل المـرء نفسـه. إذا أدرك الإنسـان هـذه الحقيقـة، فإنـه لن يجعـل أي إنسـان عرضـة أو ضحيـة لأفعـال العنف.

إذا أقدم إنسان على قتل إنسان آخر، فإن ذلك ناجم عن جهل، وإذا كان الناس يعانون من نقص في الوعي في هذا السياق، فبالإمكان معالجتهم، وعندها بالتأكيد سينتهي العنف. إن الطريقة الأفضل لمواجهة العنف والحرب هو تنمية وتطويرالتعليم العالمي.

الفصل الثالث:

مناهج عدم المواجهة

من أجل إحلال السلام

حكمة الخالق من الخلق

لسنا نحن من صمم هذا العالم؛ هذا العالم مصمم من عقل أعلى وأسمى من عقولنا، لذلك يجب علينا اتباع مخطط الأشياء كما عبر عنها العقل المصصم للكون، وإلا فإن جهدنا وحياتنا ستنتهي بالفشل.

السلام أحد المبادئ التي صمم على ضوئها هذا الكون، وباتباع طريق السلام ومنهجه فإنه لايوجد شيء يتعذر علينا تحقيقه، بينما بتجاهلنا سبيل السلام فإن كل مخططاتنا ستفضي إلى خسارة تامة. وهذا ماعبّر عنه حقيقة الحديث النبوي الشريف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: - «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»[10].

إنّ هذا الحديث النبوي الشريف هو تعبير عن سنن الفطرة، وهي ليست بسنة أو قانون مبهم أو غامض بأي حال، فكل شخص يمكنه فهمه. إنّ قانون الفطرة وسنتها قررا أن التخطيط السلمي -في هذا العالم وحده- قادر على تحقيق النجاح، والتخطيط المبني على العنف لا يمكنه النجاح على الاطلاق.

الأساس المنطقي وراء ذلك المبدإ الفكري هو أنه عندما يختار الإنسان الأسلوب السلمي، فإنه يختار المشي على طريق اللامواجهة، ولهذا يجد الطريق الواضح الأفق ليكمل مسيرته فيه كما رسم وخطط له. من جهة ثانية، عندما يختار طريقة العنف ستنتهي مسيرته بالمواجهة والصدام، وفي هذه الحالة سيواجه المرء كل لحظة بالعقبات من الطرف الآخر. إنّ هذا النوع من المسير مخالف للسنن الفطرية، ولذلك فإنه سينتهي بالفشل. طبقاً لتدبير الخالق للأمور، فإن كل

10- صحيح مسلم، حديث رقم (2593).

شخص حر في اختيار ما يشاء، وذلك يعني أن طريق الحياة ليس طريقاً في اتجاه واحد. في كل لحظة تأتي مركبات أخرى من الجانب المعاكس، ولهذا يجب على المرء أن يكون قادراً على التعامل مع ذلك الدفق من السيارات. إن فن إدارة القيادة هو ما يسمَّى بالسلام.

بالنظر إلى الواقع، فإن السبيل الوحيد لضمان النجاح هو تبني استراتيجية مزدوجة في إعداد المرء لمخططه، ذلك بأن يسعى نحو تحقيق أجندته، بينما في الوقت نفسه يجب عليه أن يتأقلم ويتكيف مع أنشطة الآخرين، وذلك الأمر شبيه بالمشي على حبل مشدود، ولكن من الممكن القيام به عبر التخطيط المناسب.

في هذا العالم يستطيع الشخص ممارسة حريته بأي شكل وبأي طريقة يريد، ولكنه لا يستطيع تغيير التدبير والمخطط الإلهي للأمور، المرء أمامه خياران: إما أن يتأقلم ليتوافق مع الخطة الإلهية ويحقق النجاح، أو أن يسير خلافاً لها ويكون مستعداً لمواجهة الإخفاق، فليس هناك خيار آخر لأي أحد.

كان هناك رجل مغرماً بالأشجار، أراد رؤية الأشجار في حديقة منزله، وظن أنه إن قام بزراعة شتلة أو شجيرة فإنها ستستغرق وقتاً طويلاً لتنمو وتصبح شجرة، فقرر أن يغرس شجرة كاملة النمو، وكلف عدة عمال بالحفر واستخراج شجرة كبيرة ونقلها إلى حديقته.

كان الرجل في غاية السرور، ويقول في نفسه (لقد قمت برحلة طويلة خلال يوم واحد، إن زراعة الشتلة أو البذرة سيكون عملاً طويلاً، والآن فإنني وجدت طريقاً سريعاً للحصول على شجرة خضراء يافعة). وفي صباح اليوم التالي، عندما نظر للشجرة وجد أن أوراقها بدأت في الذبول، وبعد عدة أيام جفت الشجرة بالكامل، كان عندها محبطاً، وعندما قام أحد

أصدقائه بزيارته، وجده في مزاج حزين جداً، وعندما سأله عن السبب قال له: - «كنت في عجلة من أمري ولكن الله ليس كذلك».

هذه القصة تخبرنا بأن الذي يسير عكس السنن الكونية لن يحقق النجاح أبدا. إن السنن الكونية لا تنطبق فقط على الشجرة، بل إنها سنن للكون كله، ففي أي مجال يجب على المرء إتباع المسلك الفطري الطبيعي، وإلا فإنه لن يستطيع تحقيق أي هدف أو غاية جديرة بالذكر.

هذا المبدأ ينطبق أيضاً على الثقافة الإرهابية، إن هذا النوع من الثقافة سوف يفشل على الدوام على الرغم من أن مقترفي الأعمال الإرهابية يمكن أن يبرروا أفعالهم بمصطلحات جميلة وجذابة.

قبل القيام بأي عمل، على المرء التفكير دائماً فيما إذا كان تخطيطه يتفق أو لا يتفق مع السنن الكونية، فإذا كان كذلك، فإنه سينجح وإلا سيتعرض للخسارة والفشل.

سياسة المشاركة اللاتصادمية

إن العـدد التقريبـي للنجـوم في الكـون يبلغ حـوالي 100 اقتيليون، أو 10 اس 29، وعـدد الكواكـب في الكـون يبلـغ حوالي 10 اس 24. ذلك العـدد الهائـل مـن النجوم والكواكـب يتحرك بصورة دائمة مسـتمرة في هـذا الكـون الواسـع منـذ مليـارات السـنين، عـلى سـبيل المثـال، الأرض تـدور باسـتمرار حـول الشـمس، وكذلـك الحـال مـع الكواكـب الأخرى التابعـة للنظـام الشـمسي، فهـي تـدور حـول الشـمس ولا تخـرج عـن مداراتهـا المحـددة والدقيقـة، ولملايين السـنين تلك الأجسـام السـماوية تتبـع مسـارات محـددة دون خلـل في الحركة أو تصـادم أحدها بالآخر.

إنهـا حقيقـة، إن عـدداً مـن التصادمـات حدثـت في الكـون، ولكن تلـك الظواهـر صممت مـن أجل تطوير هـادف للكون، والـذي يتطور ويتوسـع باسـتمرار. تلـك العمليـات تـم التخطيـط لهـا بشـكل جيـد وتهـدف لخدمـة غـرض نافع.

إن ذلـك الانسـجام الـذي يتميـز بـه الكـون جـاء ذكـره في القـرآن الكريـم مع الإشـارة لـلأرض والقمر، قال تعالى:﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْـبَحُونَ** ﴾، (سـورة الأنبياء 33).

إنها سياسـة المشـاركة اللاصدامية التي أسسـت لسـلام كامل في هذا الكـون الفسـيح، تلك هي ثقافـة العالم الكبير، وهي الثقافة نفسـها التي تظهـر جليـة على مسـتوى العـالم الدقيـق، الذرة أصغـر المـواد المادية في العـالم، تحمـل الثقافة نفسـها، فهي تحتوي عدداً مـن الجزئيات الصغيرة تتحـرك باسـتمرار. ولكـن يوجـد السـلام نفسـه في عـالم الـذرة كـما هـو الحـال في عالم الكـون الكبير.

يوجـد عـلى وجـه الأرض حـوالي خمسـون مليـون فصيلـة حيوانيـة كبـيرة وصغـيرة، وبالمثـل يوجـد سـلام كامـل في عـالم الحيـوان، إن حروباً كالحـرب العالميـة الأولى أو الثانية لم تظهر عـلى الاطلاق في عالم الحيوان، كل تلـك المخلوقـات الحيـة تنشـغل بنشـاطات كثـيرة مختلفـة، فكيـف سـاد وعـمّ السـلام الكامل بينهـا؟ والإجابة، هـى أن الحيوانـات تبنت أو نهجـت الثقافة نفسـها وهي المشـاركة واللاتصادميـة. إن الفارق الوحيد أن العـالم المـادي اتبـع ذلـك تحـت تأثير قوانـين الطبيعة، وعـالم الحيوان والكائنـات الحيـة تبنّـى ذلـك نتيجـة للفطـرة التي جبـل عليها.

إن الثقافـة ذاتهـا، ثقافـة المشـاركة وعـدم التصـادم مطلوبـة في العـالم البـشري، إن كل شـخص رجـل وامـرأة حر في ممارسـة نشـاطاته،

والقيـد الوحيـد عـلى حريـة الرجل والمرأة أن لايشـكل أذى عـلى أقرانه أو أقرانهـا، بعبـارة أخـرى عـلى الإنسـان أن يختـار الثقافـة ذاتها، وهي ثقافـة المشـاركة واللاصدامية. إنهـا الصيغة الوحيدة لإحلال سـلام قائم عـلى السـنن الكونية.

إن ثقافـة المشـاركة واللاصداميـة تحلـل السـلام، والسـلام يـشرع الأبـواب أمـام كل أنـواع الفرص. وبانتهـاز تلك الفرص يمكـن لكل رجل وامـرأة تحقيـق أهدافهما. بكلـمات أخرى إن كل شـخص لديه الفرصة لتحويـل مـا هو محتمـل (مأمـول)، إلى حقيقـة واقعة.

تلـك هـي السـنن الكونيـة، وهذه الشرعـة والسـنة الكونية هي ما تـم اختيـاره في الإسـلام، هنا سـأذكر معلومتـين ذات صلة، قبـل الهجرة سـنة (622م)، عندمـا كان رسـول الإسـلام في مكـة، نزلـت هـذه الآيـة القرآنيـة: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، (سـورة الكافـرون 6).

بعـد الهجـرة عندمـا اسـتقر النبي صلى اللـه عليه وسـلم في المدينة، أكـد عـلى المبـدأ نفسـه (حرية الاعتقـاد)، في ذلـك الوقت تقريبـاً نصف سـكان المدينـة مـن اليهـود والنصـف الآخـر من المسـلمين، أصـدر النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، الوثيقـة التاريخيـة المسـماة بصحيفـة المدينـة، والتـي أعلـن فيهـا، (لليهود دينهم وللمسـلمين دينهـم)[11]، أي لكل الدين الـذي يرتضيه. ذلك المبدأ وهو أن سياسـة المشـاركة والـلا صدامية، قائم عـلى مبـدأ خالـد، والـذي هو قائـم سـابقاً في العـوالم غير البشريـة، وهو أيضـاً أمـر ضروري في عـالم البشرية. تلك الثقافة سـتكون متبناة من أهل الجنـة أيضـاً كـما ذكـر القـرآن الكريم في هـذه الكلـمات: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾، (سـورة يونس 25).إن سياسـة المشـاركة واللاصدامية

11- ابن هشام، سيرة ابن هشام، مصر، مصطفى الحلبي وأبنائه، 1955، مجلد1، ص 503.

تمنح كل شخص رجل وامرأة مجالاً للعيش دون أن يتسبب في الأذى للآخرين من الجنس البشري، إنها الصيغة الوحيدة لتحقيق السلام والانسجام.

إن المشاركة اللاصدامية تضمن لكل شخص الحصول على فرص متساوية ليتطور، وتلك الثقافة قائمة في الكون كله، والفارق الوحيد كون أنه في العوالم غير البشرية، فإنه قائم في ظل السنن الكونية الطبيعية، بينما الإنسان هو من يختار حراً بنفسه تلك الثقافة، إن التفكير الإنساني معني بالاختيار الذي يقوم به، ولذلك فإن ظاهرة التطور العقلي توجد فقط في العالم البشري وليس في العالم اللابشري.

سياسة المفاصلة (الفصل)

العالم البريطاني اي كيليت (1864 - 1950)، كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم، في كتابه مختصر تاريخ الأديان، قائلاً: - «لقد واجه (النبي صلى الله عليه وسلم) الشدائد والمصائب بعزم وتصميم لينتزع النجاح من الفشل والإخفاق»[12].

ما هو الأسلوب والمنهج الذي قاد النبي صلى الله عليه وسلم لذلك النجاح الباهر؟ لقد كان ذلك النجاح من خلال تبني سياسة المفاصلة بين مسألتين، أحد الأمثلة على ذلك أنه في سنة 610 ميلادياً، بدأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم رسالته في مكة، للدعوة إلى عقيدة التوحيد، وهي الإيمان بإله واحد وعبادته وحده لا شريك معه، كان ذلك في الربع الأول من القرن السابع الميلادي، وفي ذلك الوقت كان جل العرب من عبدة الأصنام.

12- E.E. Kellet, A Short History of Religions, London, Victor Gollancz Ltd., 1993, p. 334.

قبـل أربعـة آلاف سـنة سـابقة لذلـك، بنـى النبـي إبراهيـم عليـه السـلام مسـجداً في مكـة لعبـادة إلـه واحـد، ذلك المسـجد أطلـق عليه اسـم الكعبـة، ولكـن في فـترات لاحقـة، قام عبّـاد الأصنام مـن مختلف القبائـل العربيـة بوضـع أصنامهم حول الكعبة، حتـى بلغ عدد الأصنام المحيطـة بالكعبـة مـا لا يقـل عـن ثلاثمائة وسـتين صنماً.

بالنظـر لكون الرسـول صاحب رسـالة توحيد، كان ذلـك بمثابة أكبر مشـكلة تواجـه النبـي صلى اللـه عليه وسـلم، ظاهرياً مـا كان يتوجب عليـه القيـام بـه، هـو البدء في تطهـير الكعبة مـن الأصنـام، ولو تطلب الأمـر اللجـوء إلى المواجهـة العنيفة مع السـدنة القيمين عـلى الكعبة.

ولكـن النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم حلـل الوضـع بترو وسـكينة، وانتهـى إلى خلاصـة أن وجـود الأصنام في مكة حـول الكعبة على الرغم مـما يحملـه ظاهريـاً مـن عامـل سـلبي، إلا أنـه يحمـل جانبـا إيجابيا، وهـو أن تلـك الأصنـام مرتبطـة بالعديـد مـن قبائـل عربيـة في الجزيرة العربيـة، فـإن النـاس سـيأتون إلى مكـة مـن مختلـف الجزيـرة العربية طـول العـام لزيـارة أصنامهـم، لذلـك سـيوجد بشـكل يومـي بالكعبـة وحولهـا تجمعـات لأعـداد معتـبرة مـن الناس.

لقـد لجـأ النبـي إلى سياسـة الفصـل بـين مسـألتين: وجـود التماثيـل في الكعبـة المشرفـة واجتـماع النـاس حـول الكعبـة. قـرر النبـي تجاهـل الأصنـام وعمـل على الاسـتفادة مـن وجود الـزوار لتبليغ رسـالة الله لهم ولقـد التـزم النبـي عليـه الصـلاة والسـلام بهـذه السياسـة لمـدة 13 عاماً حتـى اعتنـق عـدد كبير من أهـل مكة الإسـلام... هذه هـي الاسـتراتيجية الحكيمـة التـي وصفهـا أي. اى كليـت بالعبـارة السـابقة الذكر.

هـذا المبـدأ الـذي لجـأ إليـه النبـي محمـد لم يكـن مـن المبـادئ الدينيـة لا بـل قـام هـذا المبـدأ عـلى قانـون الطبيعـة أو سـنة الخلـق بتعبـير آخـر ووفقـا لقانـون الطبيعـة فـإن هـذا المبـدأ ينطبـق عـلى الجميـع سـواء أكانـت قضيتهـم دينيـه ام دنيويـة.

في الحقيقـة ووفقـا لهـذا القانـون يصاحـب كل الأحـوال امـران، ألا وهـما المشـاكل والفـرص ولا يمكن بأي حـال أن يوجـد أحداهما ويغيب الآخـر: بأن توجد المشـاكل وتنمحـي الفرص، ولهذا السـبب فإن الحكمة تقتـضي أنـه قبـل الـشروع في مهمـة مـا يجـب مراجعـة الأمـر بطريقـه واقعيـه بعيـدا عـن العواطـف، والامتنـاع عن العمـل عندما يكـون نظر الإنسـان وعقلـه لا يرى سـوى المشـاكل، لأن أسـلوب العمـل هذا نقيض ومخالـف للسـنن الكونية.

إنّ مبدأ الفصل يمنع الإنسـان من اللجوء إلى العنف وباسـتعمال وسـائل السـلم سـيحقق أهدافـه. الوسـيلة الوحيـدة العمليـة في هـذه الدنيـا هـي التـي تقـوم عـلى أسـاس التخطيـط الإيجـابي المتمثـل في الإعراض عن المشـاكل واكتشـاف الفرص والاسـتفادة منها بأعلى قدر... وفقـا لقانـون الطبيعـة فـإن هـذا هـو التخطيـط الواقعي الـذي وحده دون سـواه سـيكتب لـه النجـاح ويحقـق كل الأهـداف المطلوبة.

يبرهـن المتورطـون في أعـمال العنـف في هـذا العـصر عـلى جهلهـم وعـدم درايتهـم بمبـادئ النجـاح ومقوماتـه التـي تقـوم عـلى سياسـة «المفاصلـة» وبمـا أن هـؤلاء يسـيرون ضـد قانـون الطبيعـة وخلافـه فلن يكتـب لهـم النجـاح أبـدا في هـذه الدنيا وقدرهـم هو أن ينحتـوا تاريخاً مـن الدمـار ولن يتمكنوا أبـدا من صنع تاريخ التقدم والرقـى والازدهار. إن سـنة اللـه في الكـون اقتضـت أن سـبيل العنـف لـن ينجـح وطريـق السـلام سـيكتب لـه كل النجاح.

تحقـق الأعـمال القائمة على السـلام نتائجهـا المرجوة في هـذه الدنيا أمّـا الأعـمال التـي تقوم عـلى العنف فمصيرها دائما الفشـل مثـل المزارع يرمـى القنابـل في الحقـل ويتوقع ظهـور حدائق غنّاء.

قوة السلام أعظم من قوة العنف

شوباس كاندرا بوز (1897 - 1945م)، كان قائداً عظيماً في الهند، والهدف الذي رسمه لنفسه هو تحرير الهند من الحكم البريطاني، وتقدم للهنود بهذا الشعار: (أعطوني الدماء أمنحكم الحرية). ولقد منحه الشعب الهندي الدماء عبر الجيش الوطني الهندي، مع ذلك تلك الاستراتيجية فشلت بالكامل، وشوباس كاندرا بوز نفسه مات في حادث قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه.

برز المهاتما غاندي قائداً حقيقياً للكفاح الهندي للتحرير، غير أنه اختار أسلوباً ومنهجاً مغايراً لتحقيق هدفه، كان ذلك عن طريق السلام، كان شعاره الذي اختاره لقومه: (ساعدوني في نشاطاتي السلمية، وأنا سأمنحكم الحرية). إن استراتيجية غاندي السلمية أدت دورها ونجحت الهند في الظفر بالحرية والاستقلال، في 15 أغسطس 1947م.

إن استراتيجية شوباس كاندرا بوز التي أسست على الكفاح المسلح، تلك كانت من شأنها أن تثير العنف المضاد من الحكام البريطانيين، الذين كانوا في موضع أكثر قوة. وبالتالي فإن استراتيجية شوباس كاندرا بوز لم تجد نفعاً، واستمر الحكام الأنجليز في مواقعهم.

كان أسلوب عمل غاندي ورؤيته على النقيض، فهو عندما أعلن بأنه سيواصل كفاحه من أجل نيل الحرية والاستقلال، كان من خلال قوة السلام وليس من خلال قوة العنف، مما أفقد الحكام الأنجليز أي

مبررات لاستخدام العنف من جانبهم، لقد قيل إنه بعد إعلان غاندي ذلك، أبرق الحاكم الأنجليزي بالهند برسالة إلى حكومته جاء فيها: (يرجى تعليماتكم عن كيفية قتل نمر مفترس دون معركة).

تبين التجربة السياسية الهندية المذكورة آنفاً أن قوة السلام أكثر نجاعة بكثير جداً من قوة العنف.

والمثال التاريخي المشابه فهو من سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لقد بدأ مهمته سنة 610 ميلادياً في الجزيرة العربية، في ذلك الوقت كانت الجزيرة العربية قبلية في ثقافتها، بسبب سيطرة ظروف ذلك العصر، كانت هناك مناوشات حربية بين النبي صلى الله عليه وسلم وأعدائه، وظل الوضع كماهو دون حل أو تسوية.

لذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم، بحكمة تمكن من الوصول لاتفاق سلام، سجله التاريخ تحت صلح الحديبية سنة (628م)، كان ذلك اتفاق صلح لوقف الحرب بين الطرفين، ونتيجة لذلك الصلح، تحصل النبي صلى الله عليه وسلم على فرص جمة لصالح إنجاز مهمته من خلال الأنشطة السلمية، وهذا بحق أثبت أن ما قام به النبي معجزة، فخلال سنين قليلة قبلت الجزيزة العربية كلها عقيدة النبي صلى الله عليه وسلم.

شهد الكاتب الأمريكي مايكل هارت بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الشخصية الأعظم نجاحًا عبر التاريخ.[13] ولكن ماهو سر ذلك النجاح الأسمي؟ لقد كان بالتأكيد «السلام» ومن خلال التخطيط السليم، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسى السلام في الجزيزة العربية، وهو ما مكنه وأصحابه من الاستفادة من فرص ظهرت بعد ذلك. أن نجاح النبي -صلى الله عليه وسلم- المعجز كان بسبب استرتيجيته السلمية.

13- Michael H. Hart, The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History, New York, Citadel Press, 1978, p. 3.

إن السياسة العامة للنبي صلى الله عليه وسلم ذكرت في الحديث التالي: - «ما خُيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ بأيسرهما»[14].

وهنا، فإن الأمر الأيسر هو سبيل السلام، والأمر الأصعب هو طريق الحرب، لقد كانت السياسة التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم هي التي جعلته ناجحاً للغاية.

إن نطاق التخطيط السلمي يوجد في كل مكان وفي جميع الأوقات، والشرط الأساس الوحيد له هو الصبر، لأن الصبر يمنح القدرة على تحليل الأوضاع والوقائع بعقلية موضوعية، عندما يتحرر المرء من التحامل والتحيز، يصبح ذو تخطيط فائق، اعترف المؤرخون عموماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان رجلاً ناجحاً جداً عبر تاريخ العالم، والسبب وراء نجاحه العظيم يكمن ببساطة في وضوح أفكاره حول التخطيط في ظل الحدود والسبل السلمية.

لماذا يعد السلام أكثر قوة من العنف؟ السبب هو أن اللجوء للعنف يجعل الخصوم يتكبدون الخسارة، في حين أن من يلتزم بالطرق السلمية يجعل نفسه أقوى، إن هدف منهج استخدام العنف هو أسلوب سلبي، بينما المنهج السلمي هو أمر إيجابي، إن من بداهة الحياة أنه مهما ألحق طرف ما خسائر بالطرف الآخر، فإن تلك الأعمال والخسائر لن تزيد من قواه الذاتية، إن سر النجاح هو أن يجعل المرء نفسه أكثر قوة، وذلك الأمر ممكن تحقيقه فقط عندما لا يضع المرء هدفاً سلبياً لنفسه، بل بالأحرى صوغ سياسته في نظرة تهدف إلى نتيجة إيجابية.

14- صحيح البخاري، حديث رقم (3560).

الأمثلة التي قدمها النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان يوسف عليه السلام نبياً من أنبياء بني إسرائيل، وكان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً من بني إسماعيل عليه السلام، وكلاهما عدا من بين الأديان السامية، وكلاهما كان فائق الإنجاز.

قدم النبي يوسف -عليه السلام- إلى مصر القديمة حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد، في ذلك الوقت كان ملوك الهكسوس حكام مصر، في ذلك الزمان حلت مجاعة كبيرة بمصر، ولكن نبي الله يوسف -عليه السلام- ابتكر خطة لإنقاذ البلاد من المجاعة، في تلك اللحظة نصَّب ملك مصر يوسف عليه السلام في منصب رفيع في حكومته، هو إدارة موارد وخزائن الدولة {خزائن الأرض} (سورة يوسف 55)[15]، بحسب الكتاب المقدس قال الملك ليوسف عليه السلام: «سوف تكون سيداً على بيتي، وكل شعبي سيخضع لأوامرك، سأظل أنا أعلى منك باعتبار العرش»[16]

لقد تقبل نبي الله يوسف المنصب المقدم له من الملك واستمر فيه ربما إلى حين وفاته، وقد أشار القرآن الكريم لتلك القصة كـ ﴿أحسن القصص﴾[17]، فكيف صارت قصة يوسف -عليه السلام- أحسن القصص؟ تم ذلك من خلال الالتزام والعمل بالحكمة، وظلت السلطة والسيادة في البلاد بيد الملك، واختار نبي الله يوسف صيغة التكيف السياسي.

15- قال تعالى : ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

16- The Bible, Genesis 41: 40.

17- قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، {سورة يوسف 3}.

في الآيـة الكريمـة المذكـورة سـابقاً (أحسـن القصـص)، يعنـي أفضـل طريقـة، إن منهـج العمـل المتبـع مـن النبـي يوسـف -عليه السـلام- أنه لم يحـاول أبـداً أن يخلـع الملـك، بـل إنـه قبل الوضـع السـياسي القائم في وقتـه، وكانـت النتيجـة معجـزة، لقـد كان يوسـف -عليه السـلام- قـادراً عـلى إصـدار الأوامـر في كل شـؤون مـصر القديمـة عـلى الرغـم مـن عدم اعتلائه العرش، إن ذلك المنهج هو الذي جعل سـيرته (أحسـن القصص)، لقـد ضرب اللـه –تعـالى- هذا المثال من خلال نبيه يوسـف عليه السـلام حتـي تقتـدي بـه الأجيـال اللاحقـة، ويحققـوا النجـاح بالطريقة نفسـها التـي سـلكها النبي يوسـف عليه السـلام.

القصـة الأخـرى هـي قصـة النبي محمد صلى الله عليه وسـلم، لقد بـدأ رسـالته في النصـف الأول مـن القـرن السـابع الميـلادي في الجزيـرة العربيـة، في ذلـك الوقت كانـت الجزيرة العربية منطقة يسـيطر عليها الـشرك، وكانـت مكة مركـز ثقافة عبـادة الأوثان.

عندمـا بـدأ النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم دعـوة التوحيـد عارضه كل قـادة القبائـل. وخلقـوا جميـع أنواع المشـاكل لـه ولأصحابه رضوان اللـه عليهـم، ثـم في سـنة 628 ميـلادي، في الحديبيـة عـلى بعـد عـشرة أميـال مـن مكـة المكرمـة، بدأ النبـي صلى اللـه عليه وسـلم مفاوضات لإحـلال السـلام في الجزيـرة العربية، لقـد كان رؤسـاء القبائل معارضين بشـدة للدخـول في أي اتفـاق سـلام مـع محمد صـلى الله عليه وسـلم، وقبـل النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم - بمنتهـي الحكمـة- كل الـشروط المقدمـة مـن الجانـب المعـادي، وفي المقابـل وقّعـوا صلـح الحديبيـة الـذي نـصّ على وقـف الحـرب لعشر سـنوات.

بعـد توقيـع صلـح الحديبية حلـت في جزيـرة العرب حالة اسـتقرار طبيعية، فعمل النبي صلى الله عليه وسـلم جهده ودون إضاعة للوقت

في نـشر دعوتـه في الجزيـرة العربيـة والمناطـق المجـاورة. كانـت النتيجة معجـزة، ففـي سـنوات قليلة قبلـت الجزيـرة العربية كلها دين الإسـلام.

لقـد كان صلـح الحديبيـة تعبيراً عـن المنهج السـلمي، وبالعمل في ضـوء هـذا المنهـج بـرز النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم سـيد الوضع في شـبه الجزيـرة العربيـة في ذلـك الوقـت. إن النبي يوسـف عليه السـلام حقـق النجـاح بقبولـه سـلطة حكـم الملـك، وفي المقابـل منحـه الملـك الفرصـة لإدارة كل شـؤون البـلاد في المجـال السـياسي.

الأسـلوب نفسـه الـذي اختـاره النبي محمـد صلى الله عليه وسـلم مـع اختـلاف الطريقـة، لقـد قبـل السـلطة السياسـية لزعـماء القبائل، ومـن خـلال التخطيـط وانتهـاز الفرصـة المتاحـة في الميادـين غـير السياسـية، كانـت النتيجـة معجـزة أو مذهلـة، ظهـر النبـي صـلى الله عليـه وسـلم قائـداً أو زعيـماً لشـبه الجزيـرة العربيـة.

إن منهـج النبـي يوسـف -عليه السـلام- يشـار لـه في القـرآن الكريم بـ﴿ **أحسن القصص** ﴾ سورة يوسف 3،[18] بينما يشار لنتيجة التخطيط النبوي في الحديبية بـ﴿ **الفتح المبين** ﴾، سـورةالفتح 1.[19]

إن جوهـر كلا المنهجـين هـو عـدم اختيـار المواجهـة في ميـدان السياسـة واسـتثمار الفـرص في المجـالات اللاسياسـية. فمـن المؤكـد أن المـرء سـيخرج منتـصراً.

إن الطريقـة التـي اتبعهـا عـلى التوالي نبـي الله يوسـف ونبي الله محمـد صـلى الله عليهما وسـلم، لا تتعلق فقط بالزمـن الماضي، ولكنها

18 - قوله تعالي : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾.

19- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾.

قابلـة للتطبيـق في أي زمـان وإلى يومنـا هـذا. وهـذه الطريقـة مجدية وقابلـة للتنفيـذ. فذلـك المبـدأ هو مبـدأ عالمي أو كـوني، ولا يوجد مبدأ آخـر يمكـن أن يعمل في أوضـاع مماثلة.

استراتيجية العزل

وقعت غزوه الخندق سنه 621 حينما قرّر معارضو نبي الإسلام الهجوم على المدينة، ولكن الإدارة الحكيمة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم جنبت المسلمين القتال ذلك أن النظام الاستخباراتي المنظم علم أن جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل يسير نحو المدينة المنورة قادما من مكة التي تبعد 450كم... انسجاماً مع سياسته العامة رأى النبي تجنب القتال وبعد أن شاور أصحابه قرّر أن أفضل السبل للمواجهة هو حفر الخندق خارج المدينة في المنطقة المفتوحة أما الجهات الثلاث الأخرى لم يكن من الممكن اختراقها بسبب السلسلة الجبلية المحيطة بالمدينة وحقول النخيل ذات الكثافة الزراعية العالية.

عمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لمدة عشرة أيام وعشر ليالٍ حفر خلالها الخندق بطول 5540 متراً وعرض 4.6 أمتار وعمق 3.2 أمتار. عندما وصلت قريش وأحلافها مشارف المدينة المنورة وجدوا مدخل المدينة مقفلاً الأمر الذي أجبرهم على التخييم خارج المدينة، وبعد أسبوعين من التردد والإحباط أجبروا على التراجع والعودة إلى ديارهم.

كان هذا مثالاً لسياسة أو استراتيجية الحواجز (Buffer Strategy) حيت أصبح الخندق حاجزاً بين الفريقين منع بفاعلية وقوع القتال.

في هذا العصر تتوفر استراتيجية الحواجز (Buffer) على نطاق أوسع. تأسست الأمم المتحدة سنه 1945م وتوسعت لتضم أعضاء جميع دول

العالم تقريبا وبموجب الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة تقرر بتوافق الآراء أنه إذا هاجمت دولة أي دولة أخرى، فإن الأمم المتحدة تتدخل لوقف الاعتداء. أحد الأمثلة الناجحة يتمثل في اجتياح العراق لدولة الكويت سنة 1990م الأمر الذي جنب دولة الكويت الدمار.

الأمم المتحدة من هذا المنظور نعمة عظيمة لكل دول العالم لأنها -أي الأمم المتحدة- أصبحت حاجزاً مؤسسياً يتمتع بالصفة القانونية.

تعتبر استراتيجية الحواجز فعالة بصورة كبيرة لمنع الحرب، فبينما كانت قابلة للتطبيق على نطاق محدود في القرن السابع الميلادي صارت في القرن الحادي والعشرين وسيلة غاية في التنظيم لمنع الحروب. وأصبحت القاعدة وليست استثناء لتشمل كل دول العالم. اليوم طورت الحضارة الحديثة طريقة جديدة جداً لمنع الاشتباكات وتجنبها ألا وهي الحوار السلمي.

عن طريق الحوار السلمي وبمساعدة التقنيات الحديثة أصبح من الممكن تحويل صراع العنف إلى ساحة النقاش الفكري. وهذا شكل آخر لاستراتيجية العزل المؤسسي (إقامة الحواجز) التي تحدث في هذا العصر.

إذا استعمل كائن من كان استراتيجية الحواجز في التعامل مع الاشتباكات الوشيكة الوقوع سيتعامل بنجاح مع كل التحديات والمشاكل المصاحبة. فاستراتيجية الحواجز هي أحد أهم السبل لتحقيق أو صناعة السلام وكل ما يحتاج الإنسان للاستفادة منها هو التحلي بالصبر والتخطيط القائم على الحكمة.

لا حاجة للحكمة لدخول دوامة العنف والمواجهات المسلحة، فكل غبي يمكنه فعل ذلك ولكن إقامة السلام والحفاظ عليه يتطلب مستوى عالياً من الحصانة والتخطيط، والذي يفقه كيفية التعامل مع

التحديات والمشاكل الطارئة بالتخطيط الحكيم سيختار دائما سياسة عدم الوقوع في دوامة العنف والمواجهات المسلحة.

تقتضي الحكمة وجوب العمل باستراتيجية الحواجز عندما تكون الأوضاع وشيكة الانفجار، بغية منع الأطراف المتعادية الى اللجوء الى المواجهات المسلحة ولقد استعملت هذه الاستراتيجية على نطاق محدود في العصور الماضية ولكن اليوم أصبحت لهذه الاستراتيجية مؤسسة عالمية.

التطور الكبير في مجال الاتصالات خاصه مكّن بصورة كبيرة من فتح الحوار وتبادل الآراء... تحرير الفكر في الحقيقة وانتشار التعليم مكّن كل الأفراد والجماعات العمل بهذه الاستراتيجية.

الفصل الرابع:
شهادة التاريخ

بين المثالية والبراغماتية

الفلاسـفة والمصلحـون على مر العصور مهووسـون بمفهـوم المثالية. بعضهـم أراد حكومـة مثاليـة وفشـلوا فى ذلـك، وبعضهـم حاول إنشـاء مجتمـع مثـالي، ولكنهـم أيضـا فشـلوا في ذلـك، وآخـرون أرادوا إقامـة عدالـة مثاليـة في المجتمـع ولكنهـم عـلى الرغـم مـن كل التضحيـات فشـلوا فى تحقيـق أهدافهـم.

ماهو السبب وراء كل هذه الإخفاقات؟

لقـد أدرك الصـواب من قال إن المثالية غير قابلة للتحقيق، والسـبب هـو أن الإنسـان يولـد بعقـل مثـالي التفكـير، ولكـن العـالم الـذى نعيش فيـه أقـل مثالية. لقد اسـتهلكت الإنسـان الرغبة في الوصـول إلى المثالية، ولكـن قـدره أن يعيـش في دنيـا بعيـدة عـن المثاليـة... عـبر أحـد العلماء المشـهورين بقولـه (يبدو أن الإنسـان موجـود في عالم لم يصنـع لأجله).[20]

يمكننـا أن نعـزو كل هـذا الاضطـراب في المجتمعـات البشرية لهذه الحقيقـة... كل الرجـال والنسـاء في هـذه الدنيـا يريـدون الحيـاة وفقـاً وانسـجاماً مـع طريقـة تفكيرهـم المثاليـة، ولكـن لاختلاف سـنة الحياة يعجـز هـؤلاء عـن تحقيـق أهدافهـم...، هـذا الفـرق بـين إحساسـنا بالمثاليـة والواقـع الـذي نعيشـه، يخلـق مشـاكل فتتملـك النـاس مشـاعر الغضـب نتيجـة لذلـك الأمـر الذي يقـود إلى حال مـن الغضب والشـكوى ثـم الاعـتراض، وقـد يـؤدي في نهايتـه إلى العنـف والقتـال كوسـيلة لتحقيـق أهـداف تبقـى دائمـا بعيـدة المنـال.

20- James Jeans, The Mysterious Universe, Cambridge, Cambridge University Press, 1930, p. 3.

الطريقـة الوحيـدة لإقامـة السـلام في هـذه الدنيا هو قبـول معادلة البراغماتيـة. إنهـا لمـن أعظم الحكـم أن يرضى الإنسـان بأهـداف واقعية (براغماتيـة) عندمـا يتعـذر عليـه تحقيـق الأهـداف المثاليـة. إن المثـال التوضيحـي يقدمه الإسـكندر الأكبر الـذي ورث أرض اليونـان وصار ملكاً عليهـا، بالنسـبة إلى الإسـكندر لم يكـن حكـم اليونـان مثاليـاً لأن رغبتـه كانـت حكـم العـالم، وسـعى بجيوشـه لتحقيـق هـذا الهـدف، ولكـن التاريـخ يخبرنـا أن الإسـكندر -وكلّـه خيبـة أمـل لهزيمته- توفى سـنة 323 قبـل الميـلاد في بابـل، وهو فى عمر 32 سـنة. كان حكم اليونان هو الخيار البراغـماتى بالنسـبة للإسـكندر الأكـبر، ولكـن لنزعتـه ونزوتـه السياسـية اختـار حكـم العـالم، وذلـك انسـجاماً مع طريقـة تفكيره، لقـد كان خيار الإسـكندر خيـارا مثاليـاً، ولكـن وفقـا لطبيعـة الخلـق، فالمثالي غـير قابل للتحقيـق، ولـو أن الإسـكندر لجـأ إلى الخيـار البراغماتي لكتـب له النجاح دون أدنى شـك، ولكنـه في سـعيه خلـف المثالي فقد ماسـبق لـه تحقيقه.

هـذا حـال كل البـشر تقريبـاً.. يقـول المثـل اليابـاني (إذا ركضـت خلـف أرنبـين تفقـد كليهـما)، بإجـراء تحويـر طفيـف عـلى هـذا المثل يمكننـا القـول إن مـن سـعى وراء الاهـداف المثاليـة سـيفقد كلاً مـن الأهـداف المثاليـة والأهـداف القابلـة للتحقيـق.

بسـبب هـذا الهـوس يعـاني النـاس عمومـا مـن ضغوطـات الحيـاة التـي تتزايـد مـما يدفـع الإنسـان للشـكوى والاعـتراض، الأمـر الـذي يقود عـادة إلى العنـف، هـذه السـيكولوجية هـي الأسـاس الـذي تنطلـق منـه أعـمال العنـف، إذا أدرك الناس قانون الطبيعة (السـنن الكونية)، من هذا المنطلق سـيمكنهم العيش بسلام ويمكنهم أن يهبواً للآخرين حياة السلام.

لقد كان حلم روسيا إقامة الأمبراطورية الشيوعية، الأمر الذي أسهم في انخراط روسـيا في الحرب العالمية الثانية... لقد كان هدفاً غير واقعي،

بالنسـبة إلى الاتحـاد السـوفييتي، ولـو أنهم لجـأوا إلى أهـداف واقعية لم يكن التاريخ ليدوِن أن الشـيوعية فلسـفة تبرر اسـتعمال العنف وسـيلة لتحقيـق أهدافها المتمثلة في إنشـاء مجتمعات غير طبقية.

هـذا المبـدأ ينطبـق أيضا على أولئـك الذين اختاروا العنف وسـيلة لتحقيـق الأهـداف... أولئـك الذيـن صنعـوا أهدافـاً خاصـة بهـم كمثل إزالـة الظلـم والعـدوان أو تحقيق العدالـة المطلقة «المثاليـة»... أولئك الذيـن أظهـرت تجاربهـم - وعـلى الرغـم من حجـم التضحيـات لعهود طويلـة - أنهـا لم تحقـق أي شيء... كل ما أنجزوه هو تاريخ من الدمار، ولو أنهم لجأوا إلى الوسـائل السـلمية بدلاً من وسـائل العنف، لذكرهم التاريـخ كأنـاس عبروا طريق السـلام لتحقيق أهدافهـم وغاياتهم.

التخطيط المبني على الحقائق

ذُكـر أحـد الجوانـب لخطـة اللـه في الكـون في نص القـرآن الكريم ﴿ ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾، (سـورة البقرة 155).

هـذه الآيـات تعنـي أنـه وفقا لخطة اللـه في الكون (سـنن الخلق)، فـإن الخسـارة جـزءٌ أسـاس في هـذه الحيـاة الدنيـا عـلى كلا الصعيدين السـياسي وغـير السـياسي، ولذلـك فـإن الاسـتجابة أو الموقـف الصحيح هـو ضرورة القبـول بهـا لكونها حقيقـة وواقعاً، ثم يلي ذلـك التخطيط السـلمي للمسـتقبل بعيـدا عـن مجـالات المواجهـة. تلك هـي الوصفة الحكيمـة الوحيـدة لتحقيـق النجـاح في هذه الدنيا، وعـلى النقيض من ذلـك فـإن الذيـن ينشـغلون بالتخطيـط لاسـتعادة مافقـدوه محكـوم عليهـم بالفشـل والخسران.

كانـت الباكسـتان جـزءاً مـن شـبه القـارة الهنديـة، وقـد تأسسـت سـنه 1947 عـلى يـد عـلى جنـاح (1948 - 1876م)، بعـد انفصالهـا عـن الهنـد، ولكـن باكسـتان التـي تحصـل عليهـا عـلي جنـاح لم ترتـق إلى مسـتوى أحلامه، وفي إحدى خطبه اسـتنكر الحدود الجغرافية المقتطعة للباكسـتان.[21] تحـول ذلـك الخطـاب لمؤسـس الباكسـتان عـلي جنـاح إلى بوصلة تحديد المسـار لكل الباكسـتانيين، ثم أصبح سياسـة قومية لدولة الباكسـتان، تنـدد وتسـتنكر الحـدود الجغرافيـة المقتطعـة، وفقا لمقترح التقسـيم الأول كانـت كشـمير جـزءا مـن دولـة الباكسـتان، ولكـن بعـد الانفصـال صـارت كشـمير جـزءاً مـن الهند، الأمـر الذي رفضه واسـتنكره قـادة الباكسـتان مـما جعـل كل السياسـات القومية للباكسـتان تتمحور حـول هـدف أن تكون كشـمير جـزءاً من الباكسـتان. ولقد عـبر عن هذا المبـدأ الرئيـس بيريـز مـشرف قائـلا: (إن كشـمير تجري في دمنـا)[22].

بسـبب هذا الهاجس انخرطت الباكسـتان في عدة حروب مع الهند، وأطلقـت مـا يسـمى بحـرب الوكالـة ضد الهنـد، قدمت فيهـا كل الدعم لجيـوش غـير معلنة. اسـتنفدت الباكسـتان أكـثر من 60 عامـاً في محاوله اسـترجاع كشـمير ولم تكلـل تضحياتهـا بالنجـاح، بـل وعـلى العكـس من ذلك أثبتت هذه الاسـتراتيجية كونها سـلبية، وأدت إلى نتائج عكسـية إلى درجـة أن الباكسـتان في أعـين العـالم تصنف كونها دولة فاشـلة.

المثـال الـذي تختلف تجربته جذرياً عن الباكسـتان هو سـنغافورة التـى كانـت فيـما مـضى جـزءاً مـن ماليزيـا، ثـم انفصلـت عـن ماليزيا سـنة 1965م. كانـت الحـدود الجغرافيـة حدوداً مقتطعـة أيضاً، ولكن

21- Rajmohan Gandhi, Eight Lives: A Study of the Hindu-Muslim Encounter, New York, Suny Press, 1986, p. 174.

22- “Musharraf speech highlights, BBC, January 12, 2002,” <http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/1757251.stm>, [accessed on July 19, 2015].

مؤسس سنغافورة القائد لى كوان يو (1923 - 2015م) كان رجلاً حكيماً ولم يهدر الوقت في محاولة إعادة توطيد الحدود الجغرافية لسنغافورة، بل كرس ذاته كلية للتخطيط لتطور سنغافورة وتقدمها ورقيها معتمداً على المصادر المتاحة، وبعد مرور 40 سنة من تأسيسها أصبحت سنغافورة إحدى دول العالم المتقدمة.

دخل الفرد في الباكستان هو 4840 دولاراً أمريكاً سنوياً، بينما دخل الفرد في سنغافورة هو 76860 دولاراً أمريكياً. سنغافورة بلد خال من الديون، بينما ديون دولة الباكستان وصلت إلى حد مأهول، وتقدر ب 65 مليار دولار أمريكي. الباكستان مصنفة في الترتيب الثامن للدول الأكثر خطورة وفقاً لاستبانة «الدول الأكثر تهديداً» الصادر في 9 ديسمبر 2014م عن مؤسسة الانتل سنتر بواشنطن، بينما البيانات الصادرة عن وحدة «المعلومات الاقتصادية: يناير 2015م صنفت سنغافورة كونها ثاني أفضل الدول في العالم.

لايوجد سوى سبب واحد وراء هذه الفروقات بين البلدين ألا وهو أن الباكستان بعد تأسيسها نزعت إلى العنف، ونتيجة لذلك دفعت ثمناً باهظاً، ولكن سنغافورة لجأت إلى الأنشطة البنَّاءة ذات الطابع السلمي، وهي اليوم تجني أفضل ثمار هذه السياسات السلمية.

قضية فلسطين لا تختلف، ذلك أنها قُسمت سنه 1948م وفقا لبنود وعد بلفور... رأى العرب أن فلسطين أرض مغتصبة، وبذلوا جهوداً جبارة لاستعادتها، ولكن ومع كل التضحيات الجسام لم يكتب لهم النجاح، ذلك لأنّ كفاحهم لم يكن ضد إسرائيل، ولكن كان كفاحاً في مواجهة قانون الطبيعه (سنة الخلق).

الحقيقـه هـي أن النجـاح في هـذه الدنيا قابل للتحقيـق بالتخطيط وبالوسـائل السـلمية، وهذا يسـتلزم أن يوضع التخطيط آخذاً في الاعتبار المصـادر المتاحـة، وأمّـا التخطيـط الـذي يقوم عـلى المصادر غـير المتاحة سـيقود حتـماً إلى العنـف تجـاه الأعـداء المزعومـين، والذي يقـود بدوره إلى المزيـد من الخسـائر.

التجربـة تبرهـن عـلى أن التخطيـط القائـم عـلى المصـادر المتاحـة يولـد السـلام. إن من مزايا التخطيط السـلمي أن عمليـة البناء والتقدم تبـدأ مـن اليـوم الأول، بينـما التخطيط القائم على المصـادر غير المتاحة سـيجعل عمليـة البناء والتقـدم أمرا رهيناً بالمسـتقبل.

التخطيـط في جوهـره نشـاط سـلمي، يتبعـه بالـضروره تسـخير وترجمـة الامكانـات والطاقـات إلى أفعـال... عندما تنشـغل بالتخطيط فـإن العمليـة برمتهـا تصطبـغ بصبغـة سـلمية، ولكـن عندمـا تحـاول الوصـول إلى أهدافـك بوسـائل العنـف فلـن يكتـب لـك النجـاح.. إن سـنة الخلـق اقتضـت أن مـن كانـت بدايتـه صحيحـة يصـل إلى هدفه ومبتغاه..هـذا المبـدأ يـسري على الـكل، أفراداً وجماعـات. من تورط في أنشـطة العنـف لن تكلل جهوده بالنجـاح، لأن بدايته لم تكن صحيحة، وعـلى العكـس مـن ذلـك، فالأفـراد أو الجماعات التـي تتبنى الوسـائل السـلمية تصـل وبـكل تاكيد إلى النهايـات المرغوبـة لأن أعمالهم بدأت بدايـة صحيحة.

الإرهابيـون قـد يقتلـون النـاس بسـلاحهم وقنابلهـم، ولكنهم ليس بمقدورهـم إلغـاء قانون الطبيعة (سـنة الخلق)... إن تغيير سـنة الخلق فوق قدرة الإنسـان.

أنشطة العنف وأنشطة السلام

ذكر المؤرخ الأنجليزي إدوارد جيبون (1737 - 1794م) Edward Gibbon في كتابه المشهور «تاريخ سقوط الأمبراطورية الرومانية»: (التاريخ حقا ما هو إلا سجل لجرائم وحماقات ومصائب البشرية (History is indeed little more than the register of crimes, follies, and misfortunes of mankind)[23]

هذه ملاحظة سلبية، لكن كل حدث من أحداث التاريخ سواء أكان سلبياً أم إيجابياً، تكمن في طياته دروس وعبر. من هذا المفهوم سيكون من الصواب القول إن التاريخ مليء بالدروس والعبر النافعة.

خاض قادة أوروبا حربين عالميتين، الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918م) والحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م)، فكان مجموع الضحايا من المدنيين والعسكريين لهاتين الحربين ما يقارب 90 مليون نسمة، وتراجع اقتصاد القارة وتكبدت خسائر فادحة ولحقت أضرار بالغة بالأعمال البنّاءة كالتعليم، ولم يدوّن المؤرخون أية نتائج إيجابية انبثقت عن هاتين الحربين.

في القارة الأوروبية عينها، وفي الفترة الزمانية نفسها، كانت هناك بعض الأنشطة تجري مواكبة للحرب، مارس هذه الأنشطة العلماء والمعلمون والمفكرون، وكانت نتائج أعمال هذه النخبة مختلفةً كل الاختلاف، ذلك أنها توّجت بتقدم وتطور عظيم دوَّنه التاريخ، ومنحنا قمة الحضارة المعاصرة.

23- Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Norwalk, The Easton Press, 1974, Chapter 3, p. 69.

يمكننـا القـول انّ المجموعـة الأولى تتكـون مـن أصحـاب مذهـب العنـف، بينـما المجموعـة الثانيـة تتكون مـن أصحاب مذهب السـلام، أعـمال وأنشـطة العنـف لم تقـدم أي شيء للعـالم سـواء في الحـرب العالميـة الأولى أوالحـرب العالميـة الثانيـة، أمـا الأعـمال والأنشـطة ذات الصبغـة السـلمية فإنهـا أهـدت إلى العـالم حضـارة متقدمـة لم يسـبق لهـا مثيـل. إذا فحصنـا كلا الحدثـين في ضـوء النتائـج النهائيـة، يمكننـا أن نقـرر مطمئنـين أنـه بعـد أن شـهدنا أمثلـة عديـدة مـن التاريـخ، فإنـه لا يوجـد مـبرر مقبـول لأعـمال العنـف وأنشـطته.

لقـد حـان الوقـت لأولئـك المنشـغلين بأعـمال العنـف أن يهجـروا هـذا السـبيل إلى الأبـد. فـلا يوجـد من تجرَّع السـم مرتـين، وبالمثل فلا مـبرر مقبـول لكائـن مـن كان أن يسـتمر في العنـف وسـيلةً ومنهجاً.

إن لعبـة النـار والـدم لا يمكـن تبريرهـا فقـط بوصفهـا وسـيلة لتحقيـق العـدل.. إن حقيقـة أولئـك الأفـراد في نظـر النـاس ونظـر الله هـي كونهـم مرتكبـي جرائـم شـنيعة قتلـة مجرمـين.

أولئـك المتورطـون في ثقافـة السـلاح باسـم الديـن لا حجـة لهـم في هـذا العـصر... إنّ النتائـج السـلبية لثقافـة العنـف لديهـم، يذكرهـا الإعـلام المعـاصر دون أن يذكـر أيـة نتائـج إيجابيـة... ولـو سُـئل أولئك المتهنـون ثقافـة العنـف عـن سـبب اتباعهـم لهـذا المسـار يكـون جوابهـم "لتحقيـق العـدل"، ولكـن في الحقيقـة لجوءهـم إلى العنـف هـو أعظـم شـكل مـن أشـكال الظلـم... إن لعبـة النـار والـدم لا يمكن تبريرهـا بوصفهـا وسـيلة لتحقيـق العـدل، إنّ حقيقـة هـؤلاء الأفراد في نظـر اللـه ونظـر الخلـق أنهـم مرتكبـو جرائـم شـنيعة قتلـة مجرمون.

المتورطون في العنف في هذا العصر من الصواب وصفهم بأنهم أرهابيون، وكل من قُتل على يد مؤسسات العنف هم أُناس أبرياء... إنهم عباد خلقهم الله للقيام بدورهم في الحياة، وأعمال الإرهابيين نقيض لخطة الله منعتهم من تأدية دورهم الذي خلقهم الله لأجله.. هذا العمل من قبل الإرهابيين لا شك أنه من أبشع الجرائم، ومرتكبو هذه الجرائم بعيدون عن عفو الله ومغفرته.

تبين دراسة التاريخ أن التاريخ البشري مليء بالحروب، وفي كل الحالات قادت الحرب إلى خسارة في الأرواح ودمار في الممتلكات.

يمكن القول إن الأولين الذين خاضوا حروباً معذورون، لأنه لا علم لهم ولا دراية بسوء عاقبة الحرب، ولكن أولئك الذين يواصلون على هذا الدرب بعد إدراكهم وعلمهم بالنتائج السلبية للحرب لا يمكن إسقاط الذنب عنهم.

صارت الحرب في مفهوم العصر الحديث أمرا فاقد الأهمية، وأصبح هذا العصر عصر الفرص، حيث تضاعف حجم الفرص المتاحة إلى درجة أن كل ما يريد المرء تحقيقه اليوم يمكن تحقيقه بنهج سبل السلام.

سيكون من الصواب القول إنه في هذه الظروف المعاصرة أن الحرب والعنف ليسا خياراً. إنّ الأمر الذي استحال تحقيقه في الماضي بالمواجهة يمكن تحقيقه بنجاح في هذا العصر باستغلال الوسائل السلمية لا غير.

إتباع الطرق السلمية اليوم، مثله مثل أن تترك الشجرة لتنمو، بينما اختيار وسيلة العنف هو اجتثاث للشجرة من جذورها. إنّ مهمتنا هي أن نغرس الشجرة لا أن نقطعها، هذا من المسلمات

التـي تنطبـق عـلى عـالم النبـات ولكنهـا أيضـا تنطبـق بطريقـة مباشرة عـلى المجتمعـات البشريـة.

تنبؤ ثبت صدقه

الحـرب العراقيـة مواجهـة مسـلحة بـدأت بغـزو العـراق سـنة 2003م، بقيـادة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة خـلال حكـم الرئيـس جـورج بـوش الأول.. تـم التخطيـط لهـذه الحـرب عـلى مسـتوى عالمي عـلى يـد الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وكان قـادة أمريـكا كلهـم أمـل وثقـة في نتائـج هذه الاسـتراتيجية، ولكنني كان لدي شـكوك كبيرة فيما يتعلـق بهـذه الحـرب، وصرحت مناقضـا النتائج المحتملـة والمتفائلة في مقابلـة صحفيـة مـع «الديـلي لونـج» قبـل البدايـة الفعليـة للحـرب... صـدرت هـذه المقابلـة تحـت عنـوان: (العـدوان الأمريـكي سـيؤدي إلى نتائج عكسـية)[24].

ولقـد صرحـت بهـذا القـول ليـس بناءً عـلى معرفة غريبـة غامضة، ولكـن بنـاء على شـهادة التاريـخ.. إنها حقيقـة، أنه على مـر العصور لم يحـدث أن الأهـداف المرغوبـة أمكـن الوصـول إليها من خـلال الأعمال العسـكرية، وهـذا مـا حـدث فعـلا في الحروب التـي خاضها الإسـكندر الأعظـم (324 - 356ق.م.)، وأدولـف هتلر (1945 - 1889م)، وينطبق هـذا بالمثـل عـلى جميع مسـعري الحرب في هـذا العصر.

لقـد تبـين أن الخـاسر ليـس المهـزوم فقط، لكـن المنتـصر لا يحقق إلا مـا يعـرف بنـصر (بريمـوس) وهـو ذلـك النـصر الـذي تكـون فيـه

24-Sakina Yusuf Khan, “US Aggression would be Counter-Productive,” The Times of India, New Delhi, September 16, 2001, <http://timesofindia.indiatimes.com/india/US-aggression-would-be-counter-productive/articleshow/471929455.cms>, [accessed on July 20, 2015].

خسـائر المنتـصر مسـاوية أو أعظـم مـن خسـائر المهـزوم. إن مصطلـح نـصر بريمـوس تعـود تسـميته إلى ملـك ليـون (272 - 318 ق.م.) الذي جنـى فيه جيشـه خسـائر بشرية فادحـة في حربه وهزيمتـه للرومان في «HERACLEA» سـنة 280 ق.م.، و«ASCULUM» سـنة 279 ق.م. خـلال حـرب بريموس.

يعيـد التاريـخ نفسـه في القـرن العشريـن. ففـي الحـرب العالميـة الثانيـة كانـت بريطانيـا العظمـى أحـد أكـبر المشـاركين. عندمـا بـدأت الحـرب كانت الأمبراطورية البريطانيـة مترامية الأطراف كما عبرت عنها الصحيفـة الأسـكتلندية كالدونيـان مركـوي بتصديرهـا «الأمبراطوريـة التـي لا تغرب عنها الشـمس»[25] ولكن مع نهاية الحـرب العالمية الثانية تضاءلـت القـوى العسـكرية لبريطانيـا العظمـى، وبسـبب عجزهـا عن سـيطرتها عـلى تلـك الأمبراطوريـة لم يعـد لهـا خيـار إلا أن تتنـازل عـن مسـتعمراتها بمـا فيهـا الهنـد التـي أعلن اسـتقلالها على يـد نائب الملك البريطـاني اللـورد ماونتباتـن في 15 أغسـطس سـنة 1947م.

إن أعظـم مسـاوئ الحـرب هـو أن نتائجهـا لا يمكـن التنبـؤ بهـا، ولا يوجـد في التاريـخ حـرب نشـبت وكانـت نتائجهـا كـما كان متوقـع لهـا.. الحـرب لعبـة لا يمكـن التنبـؤ بنتائجهـا ولا تجلـب إلا الدمـار.. الحـرب كالقفـز في الظلـمات، بينـما قضيـة السـلام تختلف تمامـاً، ذلك أن التخطيـط السـلمي يـؤدي بالـضرورة إلى تحقيـق النتائـج المرجـوة.

إن مثـل الحـرب كمثـل نبتـة ذات أشـواك لا تنتـج إلا الأشـواك، والـذي ينتظـر الورود من شـجرة الأشـواك يعيـش في جنة زائفـة، بينما السـلام كنبتـة مثمـرة تـؤتي ثمارهـا كل حـين بـإذن ربهـا.

25- “The British Empire,” Caledonian Mercury (15619), 15 October 1821, p. 4.

إذا أثبـت نهـج الحرب فعاليتـه في إلحاق الضرر في الأزمنة السـابقة، فـإن اختراع أسـلحة الدمار الشـامل في النصف الثـاني من القرن العشرين أبطـل خيـار الحـرب باعتبـاره وسـيلة لتحقيـق الأهـداف، وصـار الخيار الوحيـد في عصرنـا هـذا أمـام الأفـراد والجماعـات هـو خيـار الكفـاح السـلمي، أمـا صراع العنـف فلـم يعـد قابـلاً للتطبيـق حتـى لأصحـاب القـوى العظمـى. فـإذا دخلت جماعـات أو أفـراد حرباً في القـرن الواحد والعشريـن فهـم يبرهنـون إما عـلى جهلهم بالواقـع وحقائـق العصر، أو أنهـم - وبسـبب اعتقـاد باطـل - ألقـوا بأهدافهـم إلى هاويـة الانتحار.

بسـبب التطـور التقنـي من ناحية فـإن الحرب في العـصر الحديث لم تعـد خيـاراً مقبـولاً لكائـن مـن كان، ومـن ناحيـة أخرى فـإن التطور التقنـي فتـح بـاب الفـرص خـارج سـاحة القتـال التـي مـن الممكـن ان تجعـل الفـرد ناجحـا بصـورة كبـيرة فقط بالسـير في درب السـلام.

هـذا التغـير التاريخـي يجـب أن ينـير عقـول الذيـن تورطـوا في الأنشـطة الإرهابيـة، ذلـك أن التجربة أثبتـت إلى يومنا هذا أن أعمالهم لم تحقق لهم أي شيء إيجابي. وقضيتهم هذه ليسـت اسـتثناء. وسيكون هـذا مسـتقبلهم أيضـا.. إذا مـا أصر المتطرفـون المغالون عـلى الإرهاب وسـيلة ومذهبـاً فمصيرهـم حتـما إلى المزيـد من الفشـل والخسران.

عـلى الإرهابيـين إدراك أن تسـمية السـيف وردا ً لـن يجعـل مـن السـيف وردا حقيقـة ً، وبالمثل فـإذا ما صوّر المتطرفـون أعمالهم كونها وسـيلة لتحقيـق أهـداف جميلـة ونبيلـة، فذلـك ليـس بـكاف ليحـول دون فشـلهم وخسـارتهم.

عليهـم أن يضعـوا نهاية للعنف دون أي تأخـير وعليهم العودة إلى نهج السـلام ومذهبه.

حرب لا تنتهي

الحـرب في حـد ذاتها عمـل عندما تبدأ فلن تنتهـي، وإذا ما انتهت الحـرب في سـاحة القتال تحل محلهـا الحرب الباردة.

هنـاك طرفـان في الحـرب، أحدهـما منتـصر والآخـر مهـزوم، ولكن هـذا لا يضـع نهايـة للحـرب لأن المنتـصر سـتتملكه مشـاعر القـوة والغـرور، وتتملكـه الرغبـة في الحصـول عـلى المزيـد مـن الانتصـارات، وهـذا النـوع من التفكير يمـد في عمرالحرب لتجلب المزيـد من الدمار.

أمـا بالنسـبة للمهـزوم فـإن سـيكولوجية الهزيمـة تجعـل الفرد غير مسـتعد لقبولهـا، وفي الوقـت نفسـه لا يرغـب في تلقي هزائـم أخرى.. إن عـدم قدرتـه عـلى الثـأر لهزيمتـه يعـد هزيمـة ثانيـة في ذاتهـا، ولهذا السـبب فـإن المهـزوم لا يقبـل الهزيمـة أبـدا، وتمتلكـه الرغبـة في الثـأر لهزيمتـه أيـا كانـت النتائج.

لكـن مـن أجـل حيـاة طيبة وسـليمة، يجـب أن يوضع حـداً لحالة الحـرب، ولكـن التاريـخ يخبرنـا أن إرادة إنهـاء الحـرب لا توجـد عنـد المنتـصر ولا عنـد المنهـزم، هـذه المهمـة يجـب أن تتـم عـلى يـد طـرف ثالـث، وبتدخـل الطـرف الثالـث سـيكون هنـاك دائمـا احتماليـة وضع نهايـة للحرب.

نجـد مثـالاً عـلى ذلـك في فـترة قرب نهايـة الحـرب العالميـة الثانية سـنة 1945م عندمـا ألقـت أمريـكا قنابلهـا الذريـة عـلى مـدن اليابـان هيروشـيما ونـكازاكي.. شـعرت اليابان بحاجـة قوية للانتقـام بالمثل إزاء هـذه الجريمـة الأعظـم شـناعة ضـد الأمـة اليابانيـة وكانـت في طريقها لتعليـم أمريكا درسـاً قاسـياً.

في تلـك الفـترة العصيبـة مـن الزمـن بدأ بعـض الصحافيـين - ذوي حكمـة - حملـة إعلاميـة في اليابـان، فكتبـوا مقـالات قويـة وأصـدروا بعـض الكتـب لتهدئـة اليابانيين، مفادهـا أن أمريكا ألقـت قنابلها على مـدن اليابـان 1945م واليابـان أيضا دمرت فيما سـبق القاعدة البحرية الأمريكية بيرل هاربر (Pearl Harbor) سـنة 1941م، وبهذا تسـاويا... كـما أنهـم اسـتحثوا أبناء اليابان عـلى نبذ طريق الانتقـام، وأن يكافحوا بـدلاً مـن ذلـك لبنـاء الأمـة اليابانيـة مـن جديـد، اسـتجاب اليابانيـون لهـذا النـداء الحكيـم ونبـذوا رغبتهـم في الانتقـام، بـل وفتحـوا أبـواب التعـاون مـع أمريـكا، وكانـت النتيجـة باديـة للعيـان، حـين ظهـرت اليابـان للعـالم كأعظـم الـدول تطـوراً ورقيـاً برغـم الدمـار الـذي لحـق بهـا في تلـك الحـرب العالميـة الثانية.

الوضع نفسـه لا زال قائماً بين الباكسـتان والهند، تأسسـت الباكستان سـنة 1947م، ومنـذ ذلك الزمن بـدأت العداوة بين البلدين ولم تخمد إلى يومنا هذا ... في سـنة 1971م دعم وسـاند جيش الهند حركة الاسـتقلال لبنغلاديـش تحـت قيـادة الشـيخ مجيـب الرحمـن (1920-1975م)، و نتيجـة لذلـك تجـزأت باكسـتان. و كتـب في هـذا الصـدد العديـد مـن الكتـب أشـهرها (انفصـال بعد انفصال وتقطيـع أوصال الباكسـتان). زاد هـذا الحـدث مـن غضـب الباكسـتانيين في فـترة الانحطـاط تلـك، وكان المطلـوب هـو أن يتقـدم بعـض المفكريـن ذوي الحكمـة ويرتقـوا إلى مسـتوى الحـدث ويكافحـوا بجهدهـم لتهدئـة مواطني باكسـتان، وكان عليهـم إقنـاع الباكسـتانيين أنهـم كانوا أداةً لتقسـيم الهند سـنة 1947م، واليوم سـاعدت الهند في تقسـيم باكسـتان سـنة 1971م، و بهذا يكونان قـد تسـاويا، وأنـه قـد آن الأوان لنسـيان المـاضي ولبدء مرحلة بنـاء الأمة الباكسـتانية وتوجيههـا إلى وجهـة إيجابيـة تعود بالنفـع والفائدة.

لم يكـن المفكـرون الباكسـتانيون في مسـتوى الحـدث، ونتيجة لذلك زادت مشـاعر الكراهيـة عنـد الباكسـتانيين، ولهـذا السـبب انخرطـت باكسـتان في العديـد مـن الأعـمال والأنشـطة ذات الطابـع السـلبي ضـد الهنـد، ونتيجة لانشـغال باكسـتان بهذه الأنشـطة العسـكرية ضد الهند تحولـت باكسـتان إلى دولة فاشـلة.

تحـدث الحـروب بـين الأمـم عـادة، وفي تلك الفـترة مـن الزمن ليس بمقـدور الطرفـين المتحاربـين تحويـل التفكـير السـلبي إلى فكـر إيجـابي، وليـس بوسـعهم نبذ طريـق العنف وتبنـي طريق السـلام. والمطلوب في هـذه الحـال، هـو أن يعمـل طرف ثالث محايـد على تهدئة نـار العداوة والكراهيـة، ومحاولـة خلـق تفكـير إيجـابي عنـد الأطـراف المتنازعـة. إذا وجـد طـرف ثالـث قادر عـلى أن يقـوم بهذا الـدور، يصير ممكنـا توجيه الأطـراف المتنازعـة إلى طريـق السـلام. إذا لم تحـدث مثـل هـذه المبادرة ستسـتمر أعـمال العنف بـلا توقف ودائرة العنف لـن تنتهي حتى يدمر الطرفـان تدمـيراً تامـاً وهي ليسـت الكيفيـة المثالية لإنهـاء العدوان.

مشكلة إدارة الأزمات

واجهـت كل مـن الصـين ومـصر الأزمـة السياسـية نفسـها، ولكـن ردود أفعالهـم والنتائـج التـي ترتبـت عليهـا كانت مختلفـة. ففي حين نجحـت الصـين في إدارة الأزمـة أخفقت مصر ودفعـت نتيجة لإخفاقها ثمنـاً باهظاً.

تعـد هونـج كونـج جزيـرة على سـواحل الصـين اسـتأجرتها بريطانيا من الصين لمدة 99 سـنة وفقا لبنود المعاهدة التي أبرمت سـنة 1898م. أرادت الصـين اسـتعادة هونـج كونـج و لكنهـا لم تتخـذ أيـة إجـراءات

أحاديـة الجانـب، بل خاضت مناقشـات سـلام مع بريطانيـا، وبعد نهاية ال 99 عـام ووفقـاً لبنـود المعاهـدة المبرمة أعادت بريطانيـا هونج كونج إلى سـيادة الصـين في 1 يوليـو 1997م.. هكـذا انتهـت الأزمة بسـلام.

تختلـف قضيـة قنـاة السـويس كل الاختلاف.. أنشـئت شركـة قناة السـويس سـنة 1858م، لغـرض بنـاء القنـاة وتشـغيلها وقـد تـم إبـرام عقـد إيجـار الأرض لمدة 99 سـنة بداية من فتح و تشـغيل القناة سـنة 1869م، بعـد انقـلاب 1952م، عـلى الملـك فـاروق تزعـم جـمال عبـد النـاصر رئاسـة مـصر مـن سـنة 1956م إلى سـنة 1970م، ولم يمض زمن حتـى أعلـن عبـد الناصر تأميم القناة 26 يوليـو 1956م، على الرغم من صلاحيـة عقـد الإيجـار لمـدة 12 عامـاً قادمـة. فجّـر هذا الحـدث أزمة السـويس، وردا عـلى ذلـك تحالفـت قـوات بريطانيا وفرنسـا وإسرائيل عـلى غـزو مـصر وهزمـت القـوات العسـكرية المصريـة، ثـم تـلا ذلـك حـرب الأيام السـتة سـنة 1967م، شـنت خلالهـا إسرائيل هجومـاً جوياً هائـلاً دمـر القـدرات العسـكرية الجويـة لجمهورية مـصر العربية.

مـع التفـوق الجـوي اسـتطاعت إسرائيـل أن تسـيطر عـلى شـبه جزيـرة سـيناء في ثلاثة أيـام، ثم احتلت مدينة القـدس القديمة وهضبة الجـولان الاسـتراتيجية عـلى الحدود السـورية.

واجهـت الصـين ومـصر مشـكلة تأجـير أراضي إلى دولـة أخـرى ذات سـيادة، ونجحـت الصـين في إدارة الأزمـة بحكمـة، بينـما لم تفلـح مـصر. ونتيجـة لذلـك الإخفـاق اسـتولت إسرائيـل عـلى مناطـق فلسـطينية شاسـعة لم تكـن تحت سـيطرتها قبـل التأميم. اختارت مصر اسـتراتيجية المواجهة والعنف وفشـلت في مسـعاها بينما اختارت الصين اسـتراتيجية السـلام فحققـت النصر المنشـود.

الحيـاة مليئـة بالأزمـات سـواء على مسـتوى الأفـراد أو الأمم، ومن يفقـه فـن إدارة الأزمـات فمصـيره إلى النجـاح ومـن جهـل هـذا الفـن فمصـيره إلى الفشـل والخسـران. نتائـج الإدارة الناجحـة هـو السـلام، والفشـل في إدارة الأزمات يقـود حتـما إلى الحـروب والعنـف.

كل الحـروب السـابقة تعبـير ومثـال للفشـل في إدارة الأزمـات، وفي المقابـل كل أوضـاع السـلام القائمـة ماهـي إلا نتيجـة لنجـاح إدارة الأزمـات بـين الأطـراف المتنازعـة. يتطلـب مـن كل المعنيـين تعلـم فـن إدارة الأزمـات لتحقيـق العيـش بسـلام. وفي هذا الصـدد لا يوجد بديل ناجـح سـواء عـلى مسـتوى الأفـراد أو الأمـم... إدارة الأزمـات تتطلـب الصـبر والتخطيـط بحكمـة، ومن يمتلك هـذه الخصائص سـيكون قادراً عـلى إدارة الأزمـة مهـما تعاظمـت أخطارهـا.. عندمـا يتعامـل الفـرد مـع الأزمـة سـيدفع ثمـن خسـارة بعـض الحقـوق خـلال تلـك العملية، ولكنهـا خسـارة وقتية وذات طابـع أقل أهمية.. إن الإسـتقرار والعودة إلى الحيـاة الطبيعيـة الناتـج عـن الإدارة الناجحـة للأزمـة سـيجعل من الممكـن اسـتعادة مـا خـسره بل وربمـا أكثر مـما كان في حوزته مسـبقاً.

تبرهـن الأمـة التـي تمـارس العنـف بـكل وضـوح عـلى عـدم قدرتها عـلى إدارة الأزمـات. الأمـم - في أحـوال مماثلـة - في حاجـة إلى مراجعـة أولوياتهـا، ثـم الكفـاح وبـذل الجهد لاسـتحداث الوسـائل اللازمـة لإدارة الأزمـة ومعالجتهـا، وحال ما اسـتمرت في أعمال العنف فإنها سـتزيد من حجم الخسـارة ليـس إلا.

الانخـراط في العنـف كالدخـول إلى مسـتنقع، والأفضـل هـو الخروج منـه في أسرع وقـت.. ومثـال عـلى ذلـك حـرب فيتنـام (1955 - 1975م) التـي تورطـت فيهـا الولايـات المتحـده الأمريكية لمـدة عشرين عامـاً، وفي

نهايتها أدركت أن أعمالها لا تحقق النتائج المرجوة، فقررت من طرف واحد الخروج من ساحة المعركة. إنّ قرار الولايات المتحدة الأمريكية تطبيق جيد للمثل المعروف (أن تصل متأخرا أفضل من ألا تصل أبدا).

يقود الفشل في إدارة الأزمات إلى العنف والحرب، وبالمقابل فالنجاح يؤدي لامحالة إلى السلام. تتطلب إدارة الأزمات الصبر، ومن يتحلى بالصبر في أوقات الأزمات سيعمل عقله بطريقة طبيعية وسريعاً يصل إلى حل وسلام، وعلى النقيض من ذلك، إذا فقد الفرد رباطة جأشه فلن يعمل عقله وتفكيره بالكفاءة المطلوبه مما سيقوده ويدفعه إلى طريق المواجهة.

الحفاظ على الوضع الراهن

المبدأ الأساس والوحيد الذي يمكن أن يبنى عليه سلام في المجتمع هو ضرورة الحفاظ على الوضع الراهن أوالقائم، وإذا ما حاول الإنسان تغيير الوضع القائم فإنه وبكل تأكيد سيطلق العنان لأعمال العنف، وعلى العكس من ذلك، فإن القبول بالوضع الراهن سيجلب السلام إلى المجتمع.

تعتبر الكعبة المشرفة أقدس مكان لدى المسلمين، بنى النبي إبراهيم عليه السلام الكعبة في مكة المكرمة في الألفية الثانية قبل الميلاد، بقرون عديدة قبل بعثة نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام. شكل الكعبة اليوم مكعب، شيد على قاعدة مربعة الشكل، ولكن بناء الكعبة في البداية على عهد النبي ابراهيم كان بناءً مكعباً شيد على قاعدة مستطيلة الشكل، واستمرت على هذا النحو إلى أن أعاد أهل مكة بناء الكعبة عقب الطوفان الذي ألحق أضراراً جسيمة فجعلوا لها قاعدة مربعة الشكل.

إن رسـالة نبـي الإسـلام عليـه الصلاة والسـلام كانـت إحيـاء لسـنة النبـى إبراهيـم عليـه السـلام، ولكنه لم يحـاول إعادة بنـاء الكعبة لتعود إلى الهيئـة التـي كانـت عليهـا عـلى عهد إبراهيـم عليه السـلام، بل تركها عـلى هيئتهـا المتقطعـة، والسـبب في ذلـك كـما ورد في صحيـح البخـاري خشـية النبـي أن يـؤدي ذلك إلى خـلاف ونزاع مع أهل مكـة، الأمر الذي قـد يعيـق دعـوة النبـي المسـالمة إلى ديـن الإسـلام[26]. لهـذا السـبب تـرك النبـي الكعبـة كما وجدهـا ولم يبذل أية جهـود في محاولة إعـادة بنائها.

سـنة النبـي ومنهجـه هذا، تـرك لنا مبـدأ غاية في الأهميـة ألا وهو ألاّ نحـاول أبـدا تغيـير الوضـع الراهـن التاريخـي، لأن محاولـة تغيـير الوضـع المتعـارف عليـه لعهـود طويلـة الأمـد سـيقود حتـماً إلى نتائـج وخيمـة قـد تصـل في ذروتها إلى انتشـار أعمال العنف، ونجـد في تاريخ المسـلمين أمثلـة عديـدة تبرهـن عـلى حقيقه وجـود هـذا المبدأ.

خضعت فلسـطين قبل تقسـيمها لنظـام الانتداب الـدولي الذي جاء في شـكل لجنـة قانونيـة مارسـت مهامهـا مـن العـام 1923م حتـى العام 1948م. شـكل الانتداب إدارة بريطانية للأراضي الفلسـطينية التي كانت في السـابق جـزءاً مـن الأمبراطوريـة العثمانيـة. أكـدت سـلطة الانتـداب عـلى التـزام بريطانيـا بوعـد بلفـور1917م الـذي نـص عـلى إنشـاء وطن قومـي للشـعب اليهـودي في فلسـطين. وفي العـام 1947م قدمـت الأمـم المتحـدة خطة لتقسـيم فلسـطين وأوصـت فيها بقيام دولتين مسـتقلتين لـكل مـن العـرب واليهود ونظـام دولي خـاص لإدارة مدينـة القدس.

26- الحديث: (عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم..)، صحيح البخاري، رقم 1509، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها.

رفض القادة العرب مثل حسن البنا وسيد قطب وجمال عبد الناصر مقترح التقسيم وعملوا جهدهم لإعادة توحيد فلسطين تحت حكم العرب، ولكنهم أخفقوا في ذلك الجهاد الفلسطيني العربي، وعلى الرغم من بذل كافة التضحيات، أدى ذلك التوجه إلى نتائج عكسية، وهو الأمر الذي فوت العديد من فرص البناء، وجلب المزيد من الخسائر.

الوضع الراهن لا يمكن أن يكون وليد اللحظة، ولكنه يظهر نتيجة تلاقي عوامل متعددة خلال فترة زمنية طويلة. والذين يرغبون في تغيير الوضع الراهن ليس بمقدورهم إعادة انتاج العوامل الملائمة لإحداث التغيير، فتلك العوامل المطلوبة تظهرإلى الوجود من خلال عملية تاريخية طويلة الأمد، ولا يمكن أن تظهر إلى الوجود فقط بممارسة الأنشطة السياسية وأعمال الشغب.

السلام حالة إيجابية لا تظهر للوجود إلا بالتخطيط الإيجابي، وذلك يتطلب جهوداً عظيمة ومتواصلة، تقوم على التفكير العميق والحكمة.

هذه حقيقة تاريخية، وقبول الحقائق التاريخية من هذا المنطق سيساعد على قبول الوضع الراهن، وعدم قبول هذه الحقيقة سيقود إلى الرغبة في التغيير، الأمر الذي يستحيل حدوثه.

إن إحلال السلام وضع إيجابي لا يمكن أن يسود بدون تخطيط إيجابي مسبق، والحرب من جهة أخرى حالة سلبية لا يمكن أن تنشب إلا في غياب التخطيط الإيجابي.

الذين يرغبون في صنع السلام عليهم إدراك هذا المعنى، أو أن جهودهم ستذهب هباء منثوراً.

إن محاولـه تغيـير الوضـع الراهن ليس حرباً ضـد الآخرين من بني الإنسـان، ولكنـه حـرب في مواجهـة سـنن التاريـخ وقوانينـه، ولا يوجد فـرد مـا أو جماعـة معينـة تمتلك القـوة الكافية لتحـارب التاريـخ... إن قبـول الوضـع الراهـن هـو قبـول للتاريخ، ومحاولـة التغيير هـي بمثابة حـرب عـلى التاريـخ ... في مثـل هـذه الظروف ليـس للإنسـان إلا خيار واحـد، ألا وهـو ضرورة القبـول بالحقائق التاريخية، والتخطيط بسـلام للعمـل على اسـتغلال الفـرص المتاحة أفضل اسـتغلال.

دروس من التاريخ

قـوة السـلام وفقاً لسـنة الخلـق أعظم من قـوة الحـرب، ولقد ثبتت مصداقيـه هـذا المبـدأ عـبر التاريـخ، وعلى الأخص خـلال الحـرب العالمية الثانية التى خلفت لنا دروسـاً في غاية الأهمية. شـاركت اليابان في الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م) بطموحات وتطلعات متماثلة، إذ كانت رغبـة اليابـان أن تصـير الدولـة الأولى في آسـيا، بينـما تطلعـت ألمانيـا أن تكـون الدولـة الأولى في أوروبـا... دامـت الحرب العالمية الثانية 6 سـنوات أرغمـت فيهـا الدولتان على تكبد خسـائر فادحـة في الأرواح والممتلكات، ومـع قـرب نهايـة الحرب تعرضـت كلتاهـما لدمار واسـع كبير.

برز في نهاية الحرب قادة في اليابان وألمانيا، استطاعوا إنقاذ مواطنيهم مـن مغبـة الوقـوع في بيئـة التفكـير السـلبي. وخاطـب أمبراطـور اليابان شـعبه في 12 أغسـطس 1945م متحدثـاً عـن هزيمـة اليابـان. إنـه وفقا لما يمليـه الزمـان والقدر عقدنا العزم على أن نمهد الطريق إلى السـلام الأعظم لأجيالنـا القادمـة بتحمل مالا يمكن تحملـه ومعاناة لا يمكـن معاناتها.[27]

27- John Toland, The Rising Sun: The Decline and Fall of the Japanese Empire, 1936-1945, New York, Random House, 1970, p. 817.

كان هـدف رسـالة أمبراطـور اليابـان بناء مسـتقبل اليابـان، وتحديد وجهـة العمـل ومجالاتـه، ولم يتضمن مخطـط اليابان بعـد نهاية الحرب توجيـه الأمة إلى الاسـتعداد للانتقام.

هـذا التخطيـط السـلمي نجـح نجاحـاً باهـراً، ذلـك أن اليابـان بعد مـرور ثلاثـين سـنة، تصـدرت قائمة الأمم في آسـيا وصـارت الدولـة الأولى. سـلك تاريـخ ألمانيـا الحديـث وجهـة مماثلـة، ذلـك أن المستشـار الألماني الأول (1963 - 1949م) كونـراد هيرمـان جوزف ادناور (1976 - 1967م) قـاد ألمانيـا من دمـار الحـرب إلى دولة تنعـم بالرخاء والازدهـار. وكرجل دولـة ضليـع عـلى رأس قائمـة القيـادات الفكريـة الألمانية خطـط ادناور لمسـتقبل ألمانيـا في إطـار سـلمي نقيض لسـلفه المعيب السـمعة أدولف هتلـر الـذي قـاد ألمانيـا بعدوانيـة إلى ويلات الحـرب والهزيمـة والدمار.

انتشـل منهـج ادنـاور وأسـلوبه ألمانيـا رويـداً مـن الدمـار وجعـل منهـا الدولـة الأولى في أوروبـا. هـذه التجربـة في القـرن العشرين يجب أن تفتـح أعـين أولئك الذيـن ينتهجون العنـف وتسـتثيرعقولهم، أولئك المؤمنـون بأنهـم سـيتمكنون مـن تحقيق أهدافهـم بالحـرب والقتال.

التاريـخ الإسـلامي أيضـا مـلىء بخـبرات وتجـارب مماثلـة، فقـد هاجمـت جيـوش التتـار والمغـول في القرن الثالث عشر الميـلادي الخلافة العباسـية محطمـة كل شيء مـرت عليـه مـن سـمرقند إلى حلـب.

خـاض المسـلمون عـدة معـارك في نهايتها هزمت جيوش المسـلمين وتـم إخضـاع الخلافة إلى حكم المغول وسـيطرتهم. ذهبـت كل الجهود القتاليـة فى مهـب الرياح وتحطمـت معنويات المسـلمين وتفشى بينهم معنـى «لا تصـدق إذا قال أحدهم أن المغـول هزموا.»[28]

28 - Izzuddin ibn al-Athir, Al-Kamil fi al-Tarikh, Beirut, Dar Sadir, 1982, Vol. 12, p. 384.

حـدث تغيـير بعـد أن أجـبر المسـلمون عـلى تـرك العنـف والقتـال وتحولهـم إلى الأعـمال ذات الطابـع السـلمى، ذكـر المسـتشرق البريطانى T.W Arnold 1864-1930م في كتابـه «الدعوة الى الإسـلام» أن العملية السـلمية ترتـب عليهـا دخـول السـواد الأعظـم مـن المغـول إلى ديـن الإسـلام.[29] وهكذا فإن التحديات التى لم تقهر بالسـيف قهرت بالسـلام..

تعقيبـا عـلى هـذه الحادثـة قـال المفكـر اللبنـاني الأمريـكي فيليـب حتـى (1886 -1978) انتـصر دين المسـلمين حيث أخفقت سـيوفهم.[30]

هـذا التاريـخ الإسـلامي يبعـث برسـالة في غايـة الأهميـة مفادهـا أن المسـلمين فشـلوا في تحقيـق أهدافهـم عـن طريق العنـف، وأنه قد آن الآوان مـن جديـد ليهجـروا كل أنـواع العنـف وأن يعملـوا جهدهم لتحقيـق أهدافهم بالوسـائل السـلمية.

تقـوم الحـرب عـلى الاسـتخدام العـدواني للسـلاح ولا تكـون إلا مصـدراً للدمـار، ولا يمكـن لهـا أن تحقـق شـيئا بنّـاء وإيجابيـاً، وعـلى العكـس مـن ذلك فإن السـلام القائم عـلى التعليـم والتخطيط الإيجابي سـيقود حتـماً إلى التقـدم والتطـور، والتاريـخ البـشري بأكملـه شـاهد عـلى صـدق هـذا المعنـى.

تمـارس الحـروب تحت تأثير التفكير السـلبي، وتكـون نتائجها دائما سـلبية، بينـما التخطيـط السـلمي يمارس وينضبـط تحت تأثـير التفكير الإيجابي ولهذا السـبب ثبت - دائماً وبدون أدني شـك - نجاح الوسـائل السـلمية ومنهج السلام.

29- Thomas Walker Arnold, The Preaching of Islam, London, Constable and Co. Ltd., 1913, Chapter: The Spread of Islam among the Mongols and Tartars, pp. 168-192.

30 - Phillip K. Hitti, History of the Arabs, London, Palgrave MacMillan, 2002, p. 488.

إن الدراسـة الموضوعيـة للتاريـخ تقـدم لنـا درسـاً ثميناً مفـاده أنه علـى مـر العصـور لم يتمكـن كائن مـن كان مـن تحقيق نتائـج إيجابية مـن خـلال الحـرب، وعـلى مـر الأزمنـة والعصـور لم يتمكـن أحـد مـن تحقيـق نتائـج سـلبية بتبنـي مبـدأ السـلام ومنهجه.

إن التاريـخ سـجل لخـبرات البـشر وتجاربهـم إيجابية كانـت أو سـلبية، وهـو يتضمـن رسـالة أنـه يجـب ألا نعيـد تكـرار التجـارب السـلبية، بـل يجـب أن نعيـد فقـط تلك التجـارب التـي أدت إلى نتائج إيجابيـة، كـما أن تاريـخ البشرية مدون في طيات الكتـب المتوفرة حول العـالم، وقبـل الهرولة إلى سـاحة القتال فإنه أجـدر بالمقاتلين أن يرتادوا المكاتـب بغيـة الهدايـة، وبعـد الدراسـة المتعمقـة لسـجلات التاريـخ التـي توضـح الجوانـب الإيجابية والسـلبية عـلى امتـداد التاريخ، يمكن لأولئـك الناشـطين التخطيـط لأعمالهـم المسـتقبلية.

إذا تأملـت الحدائـق الغنـاء والجبـال والبحار وتلألؤ النجوم سـترى السـلام والسـكينة تعـم أرجـاء الكـون، إنهـا فقـط حياة البـشر موبوءة بالعنـف والقتـال، وكأن وجـود الإنسـان يتناقـض مع سـائر الموجودات في هـذا الكـون. لـو أمكـن لأولئـك المنخرطـين في الأعـمال العسـكرية رؤيـة هـذا التناقض لأمتـلأوا خجـلاً وتركـوا سـبيل العنف وتبنـوا ثقافة السـلام وسبله.

الفصل الخامس:

الحاجة إلى أيديولوجية في مواجهة أيديولوجية العنف

قضية المسلمين المعاصرين

يقـال إن المسـلمين في كافـة أنحـاء الأرض متورطـون في أعـمال العنـف.. البعـض متـورط في أعـمال العنـف «السـلبي» والبعـض الآخر متـورط في أعـمال العنف «الفاعل... إن مجـرد التفكير بطريقة متطرفة يمكـن أن نصفـه بالعنف السـلبي أو الخامل، بينما ثقافة حمل السـلاح يمكـن أن نصفهـا بالعنـف الفاعـل. هـذه الظاهرة لها علاقة بالمسـلمين ولكـن ليـس لها علاقـة بتعاليم الإسـلام.

الحقيقـة وفقـاً لمفهوم القرآن الكريم هي أن المسـلمين هم الأشـهاد عـلى العالمـين، قـال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، (سـورة البقرة 143)، وهـي المهمـة نفسـها التي وُكّل بها اليهود قبل الإسـلام كما ورد في نـص الإنجيل {ولذلك فأنتم شـهدائي قال الـرب}[31].. وردت هذة الحقيقة في القـرآن في قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾، (سـورة آل عمران 187).

كان اليهـود أهـل الكتاب وحملة الرسـالة، ولكنهـم في فترة متأخرة مـن تاريخهـم نسـوا بالكليـةً وتخلصـوا مـن مفهـوم كونهـم الأشـهاد. اسـتبدل اليهـود مفهوم «الأشـهاد» بمفهوم «الخيريـة» أو تزكية الذات، وحـذا المسـلمون اليـوم حذوهـم، إذ إن تفكيرهـم يقـوم عـلى ذات المصطلـح، مصطلـح الخيريـة وتزكيـة الذات.

إن الفكـر الإسـلامي الـذي ظهـر مؤخـراً يقـوم عـلى معنـى الخيريـة والـذي يتلخـص في معنـى «نحـن خلفـاء اللـه في الأرض». لهـذا الفكـر

31- The Bible, Isaiah 43: 12.

نظـر الأدب الإسـلامي بـكل قـوة بطريقـة مبـاشرة أو غير مبـاشرة. وأعيد إحيـاء هـذا المفهـوم بصـورة أكـبر في العـصر الحديـث على يـد اثنين من المفكريـن الإسـلاميين: المـصري سـيد قطـب (1906 - 1966م) في العـالم العربي، والباكسـتاني الأصل سـيد أبـو الأعلى المـودودي (1903 - 1979م) عنـد غـير العرب.

هـذا الفكـر الـذي شـاع وانتـشر في القـرن الحالي قـاد في نهايـة الأمر إلى أعـمال العنـف تحـت مسـمّى الجهـاد، حـين صـاغ وتبنى المسـلمون المعـاصرون المحاربـون مفهومـاً خاصاً بهـم لمعنى وغاية الجهـاد ألا وهو إقامـة حكـم اللـه في الأرض، وأختـاروا لقتالهـم العسـكري الدينـى مبرراً بأن سـمّوه بمسـمّى الجهاد.

الجهـاد لفظـاً هـو بـذل الوسـع، والمعنـى الحقيقـي لهـذه الكلمـة هـو الكفـاح السـلمي لتبليـغ رسـالة اللـه إلى العالمـين. صاغ المسـلمون المعـاصرون المحاربـون مفهومـاً خاصـاً بهـم لمعنـى الجهـاد وغايتـة ألا وهـو إقامـة حكـم اللـه في الأرض، وأختـاروا لقتالهـم الديني مـبرراً بأن سـموه بمسـمى الجهـاد، ولهـذا السـبب وجـد قبـولاً عنـد الكثـير مـن النـاس. لقـد صـور أصحـاب هـذا الفكـر ومنـاصروه أعمالهـم بكونهـا قتـالاً مـبرراً وله أصـل، وللقيام بهذه المهمـة أضفـوا بطريقتهم الخاصة صفـة الشرعيـة عـلى كل أنـواع العنـف إلى درجـة أنهـم أحلـوا القيـام بالعمليـات الانتحاريـة.

والسـؤال المطـروح اليـوم هـو كيـف يمكـن مواجهـة هذا التشـدد؟ الجـواب يتطلـب وجـود أيديولوجيـة مضـادة ومعاكسـة، فالجهاديـون يزعمـون أن قتالهـم عمـل مـشروع مسـتدلين بتأويـل خاطـئ للنـص الدينـي، وعلينـا اليـوم أن ننـزع عنهـم مشروعيـة أعمالهـم باسـتبدال التأويل الخاطئ للنص لديهم بالتفسـير الصحيح، هذه هي الاسـتراتيجية

الوحيـدة التـي يمكن أن تلقـى نجاحاً. مادام الإنسـان حيواناً مفكراً يقبل الأشـياء عند مخاطبة عقله بطريقة مناسـبة والجهاديون ليسـوا استثناء.

أود أن أسرد قصـة تـدور حـول هـذا المعنى، عند زيارتي لفلسـطين قابلـت بعـض الأطفـال العرب ينشـدون «هلـم نقاتل هلـم نقاتل هلم نقاتـل، فـإن القتال سـبيل الرشـاد» فقلت: «إن الأجدر أن ننشـد «هلم نسـالم هلم نسـالم فإن السـلام سـبيل الرشاد.»

أعجـب الأطفـال بالمقـترح، وأبدوا موافقتهـم ثم اسـتطردوا قائلين: نحـن محاطـون بالأعـداء وإذا إخترنـا السـلام فـما الـذي سـيحدث؟ أوضحـت قائـلا: لقـد اخطأتـم باعتباركـم الآخريـن أعـداء، فهم ليسـوا أعداءكـم، بـل هـم المدعوون بالنسـبة لكـم، والدين أوجـب أن تصلهم رسـالة الله.

وفقـا لقـول اللـه تعالى : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾، (سـورة البروج 3)، فالمسـلمون «شـاهد» وغيرهـم مـن بنـي الإنسـان «مشـهود». واجبنـا هـو تبليـغ رسـالة الله للعالمين، ثـم أشرت لحقيقة أن وسـائل العنف لم تحقـق لهـم أيـة نتائـج، ولكنهـم إذا انشـغلوا بعمـل الدعوة السـلمية، فـإن اللـه وعدنـا بكافـة أنـواعٍ النـصر والعـون ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، (سـورة الحج 40).

عـبّر الأطفـال العـرب عـن فرحتهم بما قلـت، وقـدّم أحدهم غصن زيتـون مـن شـجيرة بالجـوار رمـزاً للسـلام. وإذا أخذنـا بعـين الاعتبـار الطبيعـة البشريـة فإنـه يمكـن القـول إن هـذه التجربة قابلـه للتطبيق عـلى كل المسـلمين في كافـة أنحـاء العالم.

الحاجة إلى قنبلة أدبية «فكرية»

ولد ميلوفان دجيلاس[32] في يوغسلافيا وتأثر في مرحلة الشباب بالشيوعية، وأصبح عضواً ناشطاً في الحزب الشيوعي، ثم نائباً للرئيس اليوغسلافي، ولكنه مع رؤية النتائج العملية للشيوعية تحول إلى أكبر النقّاد للنظام الشيوعي.

نشر كتاباً له سنة 1957م بعنوان (الطبقة الجديدة: دراسة تحليلية للنظام الشيوعي) برهن فيه على أن الشيوعية في الاتحاد السوفياتي وشرق أوروبا لا تقوم على المساواة، وإنما هي نظام أنشأ طبقة جديدة من البيروقراطيين تتمتع بمزايا ومنافع مادية لمجرد انتمائهم ولمكانتهم الحزبية. نجح هذا الكتاب نجاحاً باهراً وترجم إلى ما يقارب من أربعين لغة. وكُتبت استعراضات لهذا الكتاب في كافة أرجاء العالم ونشرته مجلة Reader›s Digest تحت عنوان (الكتاب الذي يهز العالم الشيوعي).[33]

لقد عارضت الولايات المتحدة الأمريكية روسيا الشيوعية بكل قوةّ، ولكنها بدلاً من أن تلقي بقنابلها الذرية فوق روسيا إخترعت حملة أدبية فكرية في مواجهة النظام الشيوعي. ثم طباعة ونشرعدد غير يسير من الكتب بمختلف اللغات تنتقد في مضمونها عيوب أو أخطاء الفلسفة الشيوعية. قامت هذه الحملة على تخطيط مدروس أدى في نهايته إلى إبراز تحد كبير للشيوعية على المستوى الأيدولوجي.

32- MILOWAN DJILAS (1911-1995).

33- Eugene Lyons, “Milovan Djilas and the Book That Is Shaking the Communist World,” Reader’s Digest, October 1957.

نجحـت هـذه الاسـتراتيجية نجاحـاً باهـراً، وفي سـنة 1991 انهـار الاتحـاد السـوفياتي بعـد سـتين سـنة مـن قيامـه. هـذا هـو السـبيل الصحيـح لمواجهـة الحركات الإسـلامية الإرهابية المعاصرة. إن اسـتعمال القنابـل الكيماويـة أو الذريـة ليـس الطريـق الأمثـل لاسـتئصال جذور الإرهـاب، فالقضـاء عـلى الإرهـاب يتطلب قنبلـة أدبية فكرية تسـاعد النـاس عـلى تجنـب الإرهـاب ونبـذه، وتسـتحث الإرهابيـين عـلى اتباع سـبل السـلام. تتطلـب مواجهـة الإرهـاب في هـذا العصر طباعـة كتاب قـوي تحـت عنـوان (الكتـاب الـذي يهـز عـالم الإرهاب).

اعتقـد البعـض أنّ صـدام حسـين في وقـت مـن الأوقـات راعـي الإرهـاب الأول، وأُديـن بتهمـة القتـل وأُعـدم في سـنة 2006م وبعـد صـدام حسـين اعتـبر أسـامه بـن لادن المسـوؤل الأول ورأس حربـة الإرهاب، ولكنه كذلك قتل في سـنة 2011م في مخبئه بالباكسـتان. كما اعتـبر أبـو بكـر البغـدادي الإرهـابي الأكـثر رعبـاً فوجـب القضـاء عليه، ووفقـاً للأخبـار الإعلاميـة فإنـه قُتـل في هجـوم جـوي مباغـت.

عـلى الرغـم مـن قتـل هـؤلاء القـادة، فـإن الإرهاب باسـم الإسـلام لازال مزدهـراً، وهـذا يظهـر أنـه يجـب علينـا أن نغـير طريقتنـا في مواجهـة الإرهاب. علينا أن نتبنى اسـتراتيجية غير اسـتراتيجية الرصاص والقنابل.

وفقـاً للأخبـار الإعلاميـة اعـترف الرئيـس بـاراك أوبامـا بتأريـخ 10 يونيـو 2015م، بفشـل اسـتراتيجية العنـف في مواجهـة تنظيـم دولـة العـراق والشـام، عـلى الرغـم مـن دعـم القـوات الأمريكية بعـدد 450 مستشـاراً عسـكرياً إضافـة إلى 3500 مستشـار بالعـراق. [34]

34- “Battling Islamic State,” The Hindu, June 12, 2015, p. 10.

بالنظر إلى التجارب السـابقة، علينا الآن أن نسـلك طريقاً معاكسـاً ونغـير مـن طريقـة تفكيرنـا إذا أردنا أن نضـع نهاية لـشر الإرهاب. من المهـم أن نأخـذ العـبر مـن التجارب والخـبرات التاريخيـة، ولذلك يجب أن نسـتبدل القصـف العسـكري بالقصف الأدبي الفكـري لأنها الطريقة الوحيـدة والأمثـل لتحقيق النجاح في هـذا المجال.

يقـوم الإرهـاب المعاصر باسـم الإسـلام عـلى التأويـل الخاطئ للنص الدينـي، ومثـال هـذا التأويـل مـا ورد في نـص الآيـة ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ﴾، (سـورة يوسـف 40)، في هـذه الآيـة اسـتعمل لفظ الحكـم دلالة عـلى الحكم الكـوني (القدري)، ولكن المفكرين المسـلمين المتطرفين قالوا بالحكـم السـياسي، وإضافـة إلى ذلـك قيـل إنـه لكـون المسـلمين خلفـاء اللـه في الأرض فإنـه وجـب عليهـم إقامـة الحكـم الإلهـي في الأرض، هذا الافـتراض خاطـئ لأنـه تأويـل للآيـة القرآنية خـارج سـياق النص.

وآيـة أخـرى نجـد فيها لفظ «اعدلـوا» وهى قولـه تعـالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (سـورة المائـدة 8)، الآيـة تسـتحث المؤمـن عـلى ممارسـة العـدل في حياتـه، ولكـن التأويـل الخاطـئ للآيـة قـال بالفعـل أو بالمعنـى المتعـدي بـدلا مـن المعنـى الـلازم كـما ورد في السـياق القـرآني... الفعـل في الآيـة السـابقة لا يتطلـب وجـود مفعـول بـه ليكتمـل المعنـى، والتأويـل الخاطـئ اسـتحدث مفعولاً بـه ألا وهو العـالم بأجمعـه. الفعـل في الآيـة لا يتطلـب مفعـولاً بـه، ولكـن الخطـأ في التأويـل جعـل لهـا مفعـولاً بـه (object of active) ألا وهـو العـالم المعـاصر، وهكـذا صـار معنـى الآيـة أن العـدل غايـة وجـب أن تفـرض

عـلى الآخريـن بالقوة. وبسـبب هـذا التأويل الخاطئ صـار للعدل بعد سـياسي عـلى الرغـم مـن أن هـذا المعنـى لا يمكـن أن تجـده في النـص القـرآني السـابق الذكر.

إن أي تفسـير للنـص الدينـي مـن هـذا النـوع هـو تفسـير باطـل، ويجـب أن ينـشر على أنه تفسـير باطـل حتى يعلم النـاس أن الجهادية المعـاصرة لا أصـل لهـا في الإسـلام، وحتـى يـترك المتطرفـون هـذه الأيدولوجيـة ويعلمـوا أن أفعالهـم نقيـض للإسـلام وشرعتـه ومنهاجـه. تقـوم ظاهـرة الإرهـاب عـلى التأويـل الخاطـئ للنـص الدينـي ويمكـن اسـتئصالها فقـط بنـشر التفسـير الصحيـح للنـص الدينـي.

عـبر رئيـس وزراء بريطانيـا ديفيـد كاميرون بتاريـخ يونيو 2015 في إحـدى خطبـه عـن قلقه من سـفر بعـض الشـباب إلى العراق وسـوريا منضمـين إلى تنظيـم الدولـة الإسـلامية فقال:«يجـب علينـا أن نطفـئ بريقـاً ونبطـل سـحر قضية وأهـداف المتطرفـين وخاصة تنظيـم الدولة الإسـلامية كونهـا ليسـت عمـلا رائدا وهـي قسـوة وشرٌ بغيض.»[35]

إنها حقيقة أن المتطرفين المسـلمين المعاصرين نتاج لسـحر المفهوم «الخـاص» لمعنـى الخلافـة، والحـل الصحيـح هـو إبطـال سـحر هـذه الأيدولوجيـة وبريقهـا التـي نمـت وتطـورت على يـد المتطرفـين بتأويل خاطـئ للنصـوص الدينيـة. وكذلـك إبطـال سـحر هـذه الأيدولوجيـة أوالمفهـوم القائـم عـلى التأويـل الخاطـىء للنـص القـرآني بتجريده من مسـمى الإسلام.

35- Tim Ross, “David Cameron tells teenage jihadists they are ‘cannon fodder’”, The Telegraph, July 19, 2015, <http://www.telegraph.co.uk/ news/worldnews/ islamic-state/11748953/David-Cameron-tells-teenagejihadists-they-are-cannon-fodder.html>, [accessed on July 21, 2015].

إن أحـد أهـداف هـذا الكتـاب هـو تقديـم الأدلة الصحيحـة لنبين للنـاس أن التأويـل السـياسي للإسـلام باطـل وليـس له أصل في الإسـلام.

يجـب التسـليم بـأن المفهـوم المعـاصر لمعنـى الخلافـة يقـوم عـلى تفسـير الإسـلام تفسـيراً سياسـياً (التفسـير السـياسي للإسـلام).

كانـت الأمـم المتحـدة عـلى صـواب باختيارهـا للقول الشـائع: (إن الحـرب تبـدأ وتنطلـق مـن عقـول الرجـال... وفي عقـول الرجـال يجب أن تشـيد دفاعات السـلام).[36]

إذا أردنـا أن نسـتأصل الإرهـاب فعلينـا أن نعيـد بنـاء عقـول المتطرفـين وهندسـتها عـلى مسـار وخطـى السـلام، ولا يمكـن أن تنجح أيـة اسـتراتيجية أخـرى في تحقيـق هـذا الهـدف.

تجنيد الشباب للتطرف

الجهادية الإسـلامية المعاصرة ليس لها أصل في القرآن ولا في السـنّة ومـا هـي إلا نتـاج لإعـلام المسـلمين، كان ولا يزال إعلام المسـلمين -عن غـير قصـد منـذ بدايتـه الى يومنـا هذا- وسـيلة وسـبيلاً للغـة الاحتجاج والمعارضـة، هـذه الطبيعـة لإعـلام المسـلمين كونـت عقليـة المسـلمين المعاصريـن. فالتطـرف والجهاديـة والعمليـات الانتحاريـة مـا هـي إلا نتيجـة لهـذا الإعلام.

انتـشر الإعـلام المطبوع في العالم الإسـلامي خلال القـرن الثامن عشر، وكان أول مـن قـدم الصحـف المطبوعة في مصر هو نابيليـون بونابرت[37]، عقـب اجتيـاح مـصر سـنة 1798م. أي أن الإعلام المطبوع ظهـر في العالم

36- UNESCO, <http://www.unesco.org/new/en/unesco/about-us/who-weare/history/constitution/>, [accessed on July 19, 2015].

37- Napoleon Bonaparte (1821- 1769) .

العربي على يد القوى الاستعمارية، ولقد تزامن ظهور العلم في العالم الإسلامي مع زمن شهد فيه المسلمون اجتياح الاستعمار لبلاد المسلمين على نطاق واسع.

نقلت أخبارالصحف اليومية زحف القوى الاستعمارية على العالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال حطم الأسطول الروسي سنة 1771 الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط خلال الحرب التركية - الروسية (1768 - 74م)، وقتل تيبو Tipo سلطان مايسورو في الهند وهو يقاتل الجيش البريطاني سنة 1799م، وهزمت هزيمة ساحقة سنة 1857م السلالة الحاكمة المغولية على يد البريطانيين.

أدت الحرب الإيطالية التركية بين العثمانيين ومملكة إيطاليا إلى احتلال تريبوليتانا سنة 1912م. قادت تلك الأحداث إلى ردود أفعال في المجتمعات الإسلامية من القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا، ونقلت هذه الأخبار في الإعلام بصورة مبالغ فيها. بهذه الكيفية تحول إعلام المسلمين إلى إعلام معارض، ولقد استعمل مؤخرًا الإعلام الإلكتروني المعاصر للهدف والغاية نفسها. هذا النوع من الإعلام صاغ طريقة تفكير المسلمين المعاصرين.

نوعية تفكير المسلمين المعاصرين لا تقوم على تعاليم الإسلام، بل تنبثق وتنشأ من إعلام المسلمين الذي يتحدث ويظهر باستمرار بلغة الاحتجاج والمعارضة.

هذا النمط الذي تبناه إعلام المسلمين أدى إلى سلبية المسلمين، وتحولت المجتمعات المسلمة إلى مجتمعات يملؤها الغضب، وتوجه جام غضبها إلى غيرها من المجتمعات. وعندما تبين فشل ثقافة حمل السلاح، ونتيجة للغضب المتزايد، لجأ البعض إلى العمليات الانتحارية لزعزعة أعدائهم المزعومين.

لاتقـوم الجهاديـة المعـاصرة عـلى إعـمال العقـل، ولا عـلى تعاليـم الإسـلام، ومـا هـي إلا نتـاج لغضـب وخيبة أمـل المجتمعات الإسـلامية وتفكيرهم السـلبي.

لقـد قيـل إن أعظـم الأخطـار التي نواجهـا اليوم، هـو خطر تجنيد الشـباب المسـلم (Radicalization)، والسـؤال مـا هي مصـادر التطرف الديني؟ بكل تأكيد ليس القرآن ولا السـنة النبوية بالمصدر الأيديولوجي لذلك التطرف. إن مصدر هذه الثقافة هو اسـتخدام المسـلمين للانترنت والسوشـيال ميديـا (social media) التي تعتبر امتداداً لإعلام المسـلمين ومثلـت لـدى المسـلمين مدخـلاً سـهلاً كوسـيلة الانترنـت التـي يتـم اسـتعمالها عـلى نطـاق واسـع وهم بذلك ملـؤوا مواقعهم عـلى الانترنت بصـور وتقاريـر زائفـة و مضللة لتبـين أن مجتمعات المسـلمين في خطر. هـذه القـدرة عـلى التواصـل التـي تتميـز بهـا السوشـيال ميديـا وصلت إلى كل مـكان في عـدة صـور ومنهـا الهواتـف النقالـة التـي دخلـت كل الجيوب.

أسـهمت مواقـع التواصـل وثقافـة الانترنت بشـكل كبـير في تطرف عقـول الشـباب المسـلم، وحتـى يتم إنقاذ الشـباب المسـلمين من هذه الثقافـة السـلبية يجـب القيـام بحملـة إعلامية واسـعة لإيقـاظ الوعي بطريقـة تمكـن الشـباب مـن فهـم المعلومـات المعروضـة في المواقـع الإلكترونيـة وتحليلهـا، وتمكنهـم من التمييـز بين الحـق والباطل، وهذا الكتـاب هـو محاولـة لمسـاعدتهم في هـذا المجال.

العنـف لا يمكـن اسـتئصاله بالعنـف، لأن العنـف بالمقابـل سـيزيد مـن غضـب المسـلمين، وتزايـد الغضـب هـو الدافـع وراء العمليـات الانتحاريـة.

كل المجتمعات الإسلامية تقريبا في هذا العصر تتحدث بلغة الاحتجاج والشكوى، وبسبب هذه الإشكالية الفكرية صار المسلمون أكثر تقبلاً للتوجهات السلبية لا الإيجابية. تحت تأثير هذه الشاكلة الفكرية يتعامل المسلمون مع الأخبار الإيجابية بشك وريبة. أقصى ما يعلمه المسلمون هو أن الآخرين أعداء، وهم غير قادرين على رؤية الآخرين كونهم خلق الله. كل ما يرونه هو الجانب السلبي للأحداث، ويعجزون عن رؤية الجانب الإيجابي لها.

لقد صاغ المسلمون المعاصرون مصطلحا جديدا ألا وهو (الإسلاموفوبيا) أو رهاب الإسلام.

وهذا يعني أن الغرب أخطأ إذ يعتبر أن الإسلام خطر على غير المسلمين، والحقيقة مغايرة. أعتقد أن هذا المصطلح سيكون ملائماً بتحوير بسيط ألا وهو أن المصطلح يجب أن يكون (المسلم فوبيا) أي إرهاب المسلمين وليس إرهاب الإسلام.

لقد اعتنق المسلمون ثقافه العنف باسم الإسلام، ومن هذا المنطق يحق للغرب اعتبار المسلمين كونهم مصدر خطر، ولكن الإسلام في ذاته هو رحمة من الله للناس كافة. ولكن المسلمين المعاصرين بسبب تأويلاتهم الخاطئة لدينهم فسروا الإسلام على أنه دين العنف.

رهاب المسلمين (المسلم فوبيا) هو خطاب للمسلمين لا غير، وهو يخاطب المسلمين لهجر التأويل الباطل للإسلام والبعد عن ثقافة المسدس والقنابل حتى لا يسيء الآخرون فهم الإسلام، وليتمكن لهم فهم وإدراك رحمة الله التي أرسلها الله في دين الإسلام.

والسؤال المطروح في هذا العصر أين هي نهاية النفق؟ على المصلحين في هذا العصر التركيز في دعوتهم على الشباب، ذلك أن الشباب في سنوات تكونهم الأولى متحررون إلى حد ما من الأنماط الفكرية السائدة، وهم بذلك قادرون على النظر بموضوعية، وقادرون على المدارسة والاختيار بطريقة خالية من التعصب. يجب أن تبدأ جهودنا بغرس جذور التفكير الإيجابي عند المسلمين في سن مبكرة.

الأجيال المسلمة الجديدة هي أملنا، وخاصة أولئك الذين يتسلحون بالعلم الحديث. التعليم الحديث يساعد على تحرير العقول من الأنماط الفكرية السائدة. وهم قادرون على رؤية العالم بطريقة أكثر موضوعية وتطوير قدراتهم لفهم الأشياء بطريقة واقعية. هؤلاء الشباب المسلمون هم أملنا في المستقبل.

شرورالإعلام الموجه

الصحافة المطبوعة والاتصالات الإلكترونية ظهرت في العصر الحديث، الذي يوصف بعصر المعلوماتية، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا جلب عصر الاتصالات معه عصر الكراهية؟... من الواضح والجلي أن الناس من جميع الفرق تقريباً - عدا أصحاب العلم - لا يحملون سوى الكراهية تجاه الآخر، والسبب هو الأخبار المنتقاة على يد الكتاب وأهل الخطاب والوعاظ، والتي تعرض على عامة الناس. كل فرقة وفقاً لاهتماماتها الخاصة تبث اخباراً منتقاة لسبب ما أو لآخر، فتنقل أخباراً أحادية الجانب عن غيرها من الفرق التي تعتبرها خصماً منازعاً.

ناشطو حقوق الإنسان والمصلحون الاجتماعيون والقادة السياسيون والصحفيون والكتاب المحترفون كلهم تقريباً يحذون هذا المسار.

إن التقاريـر الأحاديـة الجانـب مـن هـذا النـوع، تجعـل فرقـة أو جماعـة مـا غـير متعاطفـة أو متسـامحة مـع غيرهـا مـن الفـرق والجماعـات. وفي الظـروف والأحـوال العاديـة تبقـى هـذه المشـاعر خامـدة، ولكنهـا مـع مـرور الزمـن تشـتعل عـادةً لتأخـذ شـكل العنف والإرهـاب. والإرهـاب المعـاصر بـكل تأكيـد نتيجـة لهـذه الظاهـرة.

في مهنـة الأخبـار المتحيـزة -أحاديـة الجانـب- تعتـبر المجتمعـات المسـلمة هـي الأكثر نشـاطاً من غيرها مـن المجتمعات، وهنـاك مثالان توضيحيـان لهـذه النقطـة، المثال الأول هو كتاب العالم السـوري الأصل عبـد الرحمـن حسـن حبنكـه الميـداني الـذي ألـف العديـد مـن الكتب باللغـة العربيـة تحـت عنوان «سلسـلة أعداء الإسـلام (2000)»، عنوان أحـد هـذه الكتب هـو (أجنحة المكـر الثلاثة وخوافيهـا) ويذكر في هذا الكتـاب ثلاثـة مسـميات للمكـر تعمـل عـلى تدمير الإسـلام والمسـلمين ألا وهـي الاسـتشراق والتبشـير والاسـتعمار.. هـذا الوصـم أو النـوع مـن التصنيـف لا مـبرر لـه، لأن الموصوفـين ليسـوا بمتآمريـن، ذلـك ان نشـاطاتهم تعكـس وجهـة نظرهم.

كل جماعـة لهـا وجهـة نظـر خاصـة بها، كـما أن للمسـلمين وجهة نظـر خاصـة بهـم. والوصـم أو التصنيـف المذكورأعلاه هو نتـاج لغياب الموضوعيـة عنـد معاينـة تلـك العوامـل وتصنيفهـا بطريقـة انتقائيـة. وإذا نظر الآخرون إلى نشـاطات المسـلمين بطريقة انتقائية سـيخلصون إلى أن المسـلمين متآمرون.

أظهـرت التقاريـر عـلى سـبيل المثـال أنّ الإسـلام هـو الديـن الأكـثر نمـواً وانتشـاراً في بريطانيـا[38]. إذا مـا فـسر هـذا الأمـر بصـورة انتقائيـة

38- Siobhan Fenton, "Church of England 'one generation away from extinction' after dramatic loss of followers," The Independent, June 1, 2015,

متحيـزة، سـيرى الآخـرون في نشـاط المسـلمين مؤامـرة ومكائد لأسـلمة بريطانيـا، ولكـن إذا نظـر النـاس إلى نشـاطات المسـلمين في إطـار أن النـاس يتمتعـون ويمارسـون حريـة الاختيـار سـيبدو الخبر كونـه تحولاً طبيعياً.

لقـد حدثـت تغـيرات تاريخيـة في القـرن التاسـع عـشر والقـرن العشريـن أبرزهـا الاسـتعمار الصهيـوني والشـيوعية والتوسـع الأمريكي. لقـد افـترض المسـلمون خطـأ أن هـذه الأحداث ضد للإسـلام، وبسـبب هـذا الافـتراض الخاطئ حارب المسـلمون هذه القـوة، ولتبرير أعمالهم نسـبوها إلى الإسـلام معلنـين أن الإسـلام في خطـر ولكـن هـذا التصريح مجانـب للصـواب، يجـب عـلى المسـلمين عـدم اعتبـار هـذه التغـيرات كونهـا ضداً للإسـلام، بـل وجب النظر إليهـا كونها ظاهرة مـن الظواهر العاديـة. لقـد أدّى الفهـم الخاطـئ مـن المسـلمين إلى تفاقم المشـاكل.

إذا مـا تمتـع المسـلمون بحريـة العمـل، فعليهـم السـماح للآخرين بالقيـام بأعمالهـم وليتمتعـوا بالقدر نفسـه مـن الحريـة. إذا ما وصف المسـلمون الآخريـن أنهـم متآمـرون فعليهـم القبـول بوصـف الآخرين لهـم أنهـم متآمـرون. إذا كان للمسـلمين بعـض التحفظـات فعليهـم القيـام بتحليـل عقـلاني لأفعـال الآخريـن وأقوالهـم، ولكـن ليـس مـن حقهـم وصـف الآخريـن بمسـمّى المؤامـرة لأن ذلـك يعـد لغـة عدائية.

ليـس مـن الممكـن تغيـير نزعـة الكتّـاب وأهـل الخطـاب ولكـن مـن الممكـن تعليـم النـاس ألا تسـتفزهم الأحـداث والتقاريـر وعليهم تجاهلهـا حتـى لا يتاثـر تفكيرهـم بهـا سـلباً.

<http://www.independent.co.uk/news/uk/church-of-englandone-generation-away-from-extinction-after-dramatic-loss-offollowers-10288179.html>, [accessed on July 19, 2015].

كان هـذا مثـالاً للإعـلام المطبـوع، ولنتأمـل مثـالاً آخـر لحـدث تداولتـه كلاً مـن الصحافـة المطبوعـة والإلكترونيـة. أسـتاذة مسـلمة تدعـى طاهـرة أحمـد مـن جامعة شـيكاغو نـورث ويسـت كانت على طائـرة يونايتـد ايرلايـن في 30 مايـو 2015م، وفي خـلال الرحلـة طلبـت قنينـة مـشروب كوكاكـولا مغلقـة. اعتذر منهـا المضيف الجـوي بالقول إنـه ليـس بوسـعه إعطاؤهـا قنينـة مغلقـة ولكـن المسـافر بالكـرسي المجـاور حصـل عـلى قنينة بيرة مغلقـة. قالت طاهـرة إن المضيف علل عـدم تلبيـة طلبهـا بـأن المسـافرين قـد تسـتعمل القنينـة سـلاحاً أثناء الرحلـة. نـشرت طاهـرة أحمـد عـلى صفحـة الفيـس بـوك الخاصـة بها هـذا الخـبر «المضيـف الجـوي تعامـل معـي بعنصريـة».

واسـتعملت الهاشـتاج «الإسـلامفوبيا حقيقـة». لجـأ الناشـطون الإسـلاميون إلى السوشـيال ميديـا وتناولـوا الحـدث كونـه تعصبـاً لا يغتفـر ووجهـوا دعوتهـم لمقاطعـة خطـوط يونايتـد ايـر لايـن بسـبب التعصـب والتمييـز العنـصري.[39]

هـذا الحـدث حـدث تافـه، ولكـن تـم تقديمـه بهـذه الصـورة على الفيـس بـوك، فصـار خـبراً مثـيراً عنـد الإعـلام وتـم تناقلـه عـلى نطـاق واسـع. هـذا النـوع مـن الأخبـار الـذي نـراه بشـكل يومـي سـاعد على تنميـة مشـاعر الكراهيـة عند المسـلمين لغيرهم عامة وللغـرب خاصة. هـذا النـوع مـن الأخبـار الانتقائيـة مـن أعظـم مشـاكل المسـلمين في هـذا العـصر، ذلـك أنها أدت إلى انتشـار التفكير السـلبي في كافة أرجاء العالم.

39- “United Airlines faces boycott for ‘Islamophobia’ at 30,000 feet,” The Times of India, New Delhi, May 31, 2015, p. 22.

الكتـاب والصحفيـون المسـلمون الذيـن عملـوا عـلى نشر مثـل هذه الأخبـار تحولـوا إلى نمـط في الكتابـة يحتـذى بـه وهـم المسـؤولون عـن الشـاكلة الفكريـة المعـاصرة. ليس من الممكـن تغيير نزعـة الكتّاب وأهل الخطـاب أوميولاتهـم، ولكـن مـن الممكـن تعليم النـاس أن لاتسـتفزهم الأحـداث والتقاريـر وعليهـم تجاهلهـا حتـى لا يتأثر تفكيرهم بها سـلباً. كل إنسـان يتمتـع بحريـة في هذه الدنيـا ولا يمكننا أن نمنـع الآخرين من حرياتهـم، ولكننـا نتمتـع بالحكمة، فيجب ألا نصـوغ أفكارنـا وآراءنا بناءً عـلى تقاريـر خاطئـة، بل يجب أن تكـون آراؤنا مبنية على أسـاس عقلاني.

العمليات الانتحارية

العمليـات الانتحاريـة في العـصر الحـالي تعبير أومظهـر فريد ومريع مـن مظاهـر العنـف، لعل أسـوأها وأشـدها فتـكاً الهجوم عـلى نيويورك (سـبتمبر 2011م) عندمـا هاجـم مسـلحون بـرج التجـارة العالمـي، حين اختطـف المسـلحون أربع طائـرات ركاب مدنية تحطمت اثنان في برجي التجـارة العالمـي.. نتج عن الهجـوم مقتل 3000 إنسـان، وتحطم البرجان المكونـان مـن 110 طوابـق مما تسـبب فى أضرار هائلة للمبـاني المجاورة.

لا شـك أن المسـلمين يتصـدرون قائمـة مسـتعملي الوسـائل الفتاكة في العمليـات الانتحاريـة عـلى الرغـم من تحريـم الانتحار وفقـاً لمبادئ الشريعـة الإسـلامية. أورد البخـاري أن أحـد المسـلمين جـرح في إحـدى المعـارك ولم يتحمـل شـدة الألم فقتل نفسـه بسـيفه، وكانـت هذه أول حالـة انتحـار في عهـد الإسـلام، فأخبر الرسـول عنـه أنـه في النار.[40]

وفقـا للنـص والمفهوم الإسـلامي، الانتحارعمل غـير مشروع، فكيف صار للمسـلمين مؤسسـات قائمة تدرب الشـباب على القيام بالعمليات

40- صحيح البخاري، حديث رقم (3062).

الانتحاريـة. إن القيـام بهـذه النشـاطات يتطلـب دعـماً ماديـاً كبـيراً، والمسـلمون هـم مـن يقدمـون هـذا الدعـم المـادي لتلـك المؤسسـات، ولذلـك فـإن المجتمعـات الإسـلامية بكاملهـا متورطة في هذه الأنشـطة بطريقـة مبـاشرة أو غـير مباشرة.

كتـب الأمريكي اللبناني الأصل جبران خليـل جبران (1833 - 1931م): «لاتسقط أوراق إلا بالموافقة الصامتة للشجر».[41]

السـبب الرئيـس وراء الأعـمال الانتحاريـة في العـصر الحـالي، هو أن المسـلمين في هذا العصر تكونت لديهم رؤية أن العالم ينقسـم قسـمين. مسلمين وكفار، فغيرالمسلمين كلهم كفار. فهناك دول يحكمها المسلمون هــي دار الإسـلام، امّا الدول التي يحكمها غير المسـلمين فهـي دار الكفر. بسـبب إشـكالية هـذا التفكير أبيحـت تلك الأعمال الشـنيعة ضد الكفار المزعومـين. وبسـبب هـذه العقلية السـلبية تجرأ بعض علماء المسـلمين عـلى التصريـح علناً بمشروعيـة الأعـمال الانتحارية مع العلـم أنها أعمال محرمـة بـكل مـا تعنيـه الكلمـة، ولقـد أصـدر بعـض العلماء المسـلمين فتـاوى تبيـح الانتحـار، وصاغـوا مصطلـح الاستشـهاد تبريـراً للعمليـات الانتحاريـة. ولا شـك في خطـأ هـذه الفتـاوى ومـن الغريـب أن علـماء المسـلمين لم ينتقـدوا علنـاً هذه الفتـاوى الباطلة.

العمليات الانتحارية المعروفة ب Hari-Kiri اسـتعملها اليابانيون عـلى نطـاق واسـع، ولهـا جـذور تقليديـة في المجتمـع اليابـاني، حيـث يقـدم الفـرد عـلى الانتحـار بشـق البطن. كـما نعلم بأن وسـيلة (هاري كـيري) اسـتخدمها اليابانيـون خلال الحـرب العالمية الثانيـة وتبين عدم جدواهـا وفاعليتهـا فتركهـا اليابانيون.

41- Khalil Gibran, The Prophet, New York, Knopf Doubleday Publishing Group, 1923, Chapter 12.

ممارسـة العمليـات الانتحاريـة على يـد المتطرفين الإسـلاميين أثبتت أيضـا عـدم فاعليتهـا. إنّ مثـل تلـك الهجـمات التـي تقتـل عـدداً مـن الأبريـاء، ولا تـأتي بأيـة نتائـج ايجابية. والسـؤال الذي يطرح نفسـه: لماذا تسـتمر العمليـات الانتحارية عـلى الرغم من فشـلها في تحقيق النتائج؟ السـبب هـو أن المسـلمين اسـتخدموا مفهومـاً لا أسـاس لـه مـن الصحة مفاده أن قتل المؤمن في سـاحات المعركة شـهادة ثوابها الجنة، ولا شـك أن هـذا معتقـد باطـل، فوفقـاً لتعاليـم الإسـلام لا يوجد أدنى شـك في أن الذيـن يقتلـون أنفسـهم يموتـون ميتـة جاهلية ولاجنـة لهم.

قرر الإسـلام أن الدنيا دار الإنسـان عامة، مسـلمين وغير مسـلمين، والواجـب هو أن يتعامل المسـلمون مع الآخريـن باعتبارهم خلق الله. رأى النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم فى المدينـة جنـازة يهـودي فوقـف، وعندمـا سـئل عـن سـبب وقوفـه مـع أن الجنـازة كانـت ليهـودي، رد قائلاً: «أَلَيْسَـتْ نَفْسًـا.»[42]

لقـد عبّر النبي عن القاسـم المشـترك بين شـخص النبـي واليهودي، ذلـك بـأن اللـه خلـق النبـي، واللـه هو الـذي خلـق اليهـودي. هذا هو الأسـاس الحقيقي للمساواة.

وفقـاً لتعاليـم الإسـلام لا يوجـد أدنى شـك أن الذيـن يقتلـون في العمليـات الانتحاريـة يموتـون ميتـة جاهليـة ولاجنـة تنتظرهـم.

صناعـة الأسـلحة في عالمنـا اليـوم، هى أحـد أهم الصناعـات الناجحة عـلى المسـتوى المادي. والسـؤال: مـن الذي جعل صناعة الأسـلحة صناعة ناجحـة مزدهـرة. لا شـك أنـه المشـتري. هـؤلاء الزبائن هـم خلـق اللـه الذين وهبهم عقولا لتسـخيرها لتحقيق مقاصد الشريعة الخيّرة، ولكنهم

42- صحيح البخاري، رقم الحديث 1312.

استعملوا عقولهم في أعمال الهدم لا البناء مناقضين إرادة الله سبحانه وتعالى، سيسألهم الخالق رب السموات والأرض فهل لديهم الجواب؟

زاوية النظر

الشاعر الأنجليزي والكاتب الديني فريدرك لانكبريدج[43] قال في أحد أشعاره (نظر اثنان من خلال قضبان السجن أحدهما رأى الطين والآخر رأى النجوم)[44].

بالنظر إلى حدث ما، فلا شك أن زوايا النظر تختلف. يعتمد الرأي الذى يكونه الفرد على زاوية النظر. النظر من زاوية ما يجعل الفرد إيجابياً، بينما النظر من زاوية أخرى قد يجعله سلبياً. تجلت هذه الظاهرة بوضوح في أحداث 11 سبتمبر، ذلك أن طائفة من المسلمين رأت في الولايات المتحدة الأمريكية عدواً للإسلام وجب تلقينه درساً. اختطفت مجموعة من الإرهابيين أربع طائرات ركاب تحطمت اثنتان منها في البرجين الشمالي والجنوبي لمركز التجارة العالمي في نيويورك، وسببت أضرارا هائلة في المباني المجاورة.

بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي، شاركتُ في مؤتمر نزع الأسلحة الذرية الذي انعقد في مدينه زوغ Zug بسويسرا بتاريخ 12 أكتوبر 2002م .ألقيت كلمة عرجت فيها على أحداث هجوم 11 سبتمبر المروعة، فذرفت عيناي كما ذرفت في مكتبي بنيودلهي عندما أذيع الخبر في حينه.

43- Frederick Langbridge (1923-1849).(Two person looked from the prison bars one saw the mud and the other saw the star).
44- Leslie Vernick, Lord, I Just Want to Be Happy, Eugene, Harvest House Publishers, 2009, p. 204.

سـبب بـكائي هـو علمـي أن المتورطـين في أعـمال العنـف افتقـدوا الحكمـة. لقـد رأوا مركـز التجـارة العالمـي مـن زاويـة نظر سـلبية، ولو أنهـم نظـروا مـن زاويـة نظـر إيجابيـة لاسـتفادوا درسـاً عظيماً.

سـافرت إلى نيويـورك في فبرايـر 1998م، وصعـدت إلى برجي التجارة العالمـي، وحيـث رأى المتطرفـون البرجـين مـن زاويـة نظر سـلبية نظرت إلى تلـك المبـاني مـن زاوية نظـر إيجابية، وتبين لي الحكمـة والخير الكثير. لقـد تبـين لي أن التقنيـة الحديثـة منـة وهبـة عظيمـة من الله سـبحانه وتعـالى، ذلـك أنـه إذا ضاقـت المسـاحات الأفقية لعمليـات البناء منحت التكنولوجيـا الحديثة للإنسـان القدرة على التوسـع المعـماري العمودي.

أنـزل القرآن الكريم في القرن السـابع الميـلادي قبل ظهور الحضارة الحديثـة، ولقـد ورد في القـرآن نبـوءة تاريخيـة عـن المسـتقبل مفادها {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}، (سـورة فصلـت 53)، وهـذا يعني انـه بعد نـزول القرآن سـتبدأ عملية تغيـير جذريـة في هـذه الدنيـا، وقـد بلغـت هـذه العمليـة التطوريـة ذروتهـا في القـرن العشرين.

برجـا التجارة العالميـة رمز وعنوان لذلك التطـور التاريخي، فقديماً أمكـن للبـشر التوسـع أفقيـاً في عمليـات البنـاء ولكـن اليـوم وبفضـل التقـدم التكنولوجـى أصبح التوسـع العمـودي حقيقة.

برجـا التجـارة كانـا رمـزاً لفضـل اللـه ونعمتـه عـلى بني الإنسـان، ومـع ذلـك فقـد اعتـبر بعض المسـلمين برجـي التجـارة رمـزاً لأعدائهم المزعومـين وتـم تدميرهـما بغـزو جـوي لم يسـبق لـه مثيل.

نبـوءة القـرآن السـابق ذكرهـا، تجلـت بطـرق متعـددة في هـذا العـصر، ومثـال ذلـك أن الإبـداع أوالإعجاز في مخلوقات اللـه لم يُر فيما

مـضى إلا بالعـين المجـردة، لكـن اليـوم أمكـن رؤيـة الإبـداع بتفاصيـل دقيقـة بعـد اخـتراع المجهـر والتلسـكوب. لقـد تمكنـا في المـاضي مـن الدعـوة إلى ديـن اللـه عـلى نطـاق محـدود، لكن اليـوم نتيجـة للتقدم العلمـي في مجـال الاتصـالات والطباعة يمكـن لنا أن نقـوم بالدعوة إلى اللـه عـلى نطـاق عالمي.عندمـا تعـذر السـفر والترحال لعوائـق لم يمكن تفاديهـا كالجبـال والغابـات الكثيفـة والمحيطـات اخترعـت الطائـرات لتعلـو فـوق كل هـذه العوائـق وتجعـل السـفر ممكناً وسـهلاً ومريحاً.

فى عـصر الملـوك كان للعـوام مـن البـشر فـرص محـدودة، ولكـن الديمقراطيـة الحديثـة قلّصـت بصورة اسـتثنائية من القوى السياسـية للحاكـم، وهـذه الظاهـره فتحـت مجال الفـرص لعامة النـاس للتقدم في العديـد مـن المجـالات. قامـت العصـور السـابقة عـلى التعصـب الدينـي، أمـا اليـوم يتمتـع عامـة النـاس بحريـة دينيـة لم تتوفـر لهـم مـن قبل.

صـيّرت التغـيرات في هذا العصر العنف أمـراً عقيماً، وإن التطورات في هذا العصر مكنّت الأفراد من تحقيق الأهداف المنشـودة بالوسـائل السـلمية، تلـك الأهـداف التـي لم تتحقق في الماضي إلا بوسـائل العنف. كل توسـع في المـاضي أدى إلى المواجهـة، ولكـن وسـائل التطـور اليـوم أدت إلى إمكانيـة التوسـع عـلى نطـاق واسـع دون الحاجـة إلى اللجـوء إلى المواجهـة والعنف تجـاه الآخرين

إنهـا حقيقـة كـون الإنسـان بطبيعته طموحـاً ولتحقيـق طموحاته لجـأ في المـاضي إلى محاولـة إلحـاق الهزيمـة بالعديـد مـن الأمـم أو احتـلال مزيـد مـن الأراضي بخـوض المزيـد مـن المعـارك الواحـدة تلـو الأخـرى، ولكـن اليـوم لا حاجـة للإنسـان أن يسـلك هذا السـبيل، ذلك أن التكنولوجيـا المعـاصرة صـارت البديـل المناسـب لتحقيـق كل تطـور

وتقـدم دون اللجـوء إلى العنـف والقتـال. لقـد فتحـت التكنولوجيـا الحديثـة الأبـواب عـلى مصراعيهـا لتحقيـق السـلام.

فالعـصر الحديـث هـو عصر التكنولوجيا ومن يسـتمر في السـير في سـاحات القتال، فإنمـا يبرهـن عـلى عـدم درايتـه بالفـرص والإمكانـات المتاحـة لهـم في هـذا العـصر. إنهـم يطلبـون الحيـاة في عـصر السـلام بعقليـة الحـرب التـي أكل عليهـا الدهـر وشرب.

لقـد اسـتمرت الحقبـة الأوروبيـة الاسـتعمارية مـن القرن السـادس عـشر الميـلادي إلى منتصـف القـرن العشريـن، وكان الهـدف الأسـاس للعمليـات الاسـتعمارية هـو الاسـتحواذ عـلى السـوق العالميـة لتحقيـق الإنتاج، وكان هذا ممكننا فقط بالسـيطرة سياسـياً عـلى البلدان الأخرى، فتحول الاسـتعمار عملياً إلى اسـتعمار سـياسي، ولكن اليوم أمكن للدول الصناعيـة تحقيـق أهدافهـا بصـورة أكـبر مـن ذي قبـل دون الحاجـة إلى شـن الحـروب والمعـارك، وهـذا التغـير لم يكـن ليحـدث لـولا التطور التكنولوجـي الحديث.

إن أولئـك المسـلمين الذيـن يحاربـون مـن أجـل تحقيـق مكاسـب سياسـية قـد لايكـون لديهـم علـم ودرايـة أنهـم بتوظيـف المصـادر التكنولوجيـة الحديثـة يمكنهـم تحقيـق كل أهدافهـم بسـلام، وعـلى العكـس مـن ذلـك فـإن وسـائل العنـف لا تـأتي إلا بمزيـد مـن الخسـائر الماديـة والبشريـة.

الحياة في هذا العصر

المشـاكل التـي تواجه المجتمعات الإسـلامية في هـذا العصر مصدرها واحـد ألا وهـو عـدم الدرايـة بإمكانـات العـصر المتاحـة. إذا كان العصر السـابق عـصراً تقليديا، فـإن العصر الحديث غير تقليـدي، بكل ما تعنيه

كلمة عصر حديث. ولكن المسلمين اليوم غير مدركين لهذه الحقيقة، ولأن أعمالهم ومخططاتهم تمارس بصورة تقليدية كانت نتائجها دائما عقيمة وغير مجدية. يحيا المسلمون المعاصرون مفارقة تاريخية، إنهم يعيشون الحاضر متمسكين بطريقة تفكير العصر السابق أو بعقلية تقليدية. إن أية مجهودات بغية إصلاح المجتمعات الإسلامية لن يكتب لها النجاح إلا بإحداث تغيير جذري في عقلية أو طريقة تفكير المسلمين. يجب أن تخرج الجهود المبذولة المسلمين من الماضي ليعيشوا الزمن الحاضر.

خلال الحرب الإيطالية - التركية (1911 - 1912م)، كان للمقاتلين الليبيين شعار مفاده «مت اليوم عزيزاً قبل أن تموت غداً ذليلا». الراية التي طُبع عليها الشعار شاهدناها ولا تزال تعرض في المتحف الإسلامي بطرابلس. تعبّر هذه الراية عن مشاعر المسلمين إلى يومنا هذا، ولكن الحقيقة تناقض خطة الله في الكون.

الشعار الصحيح يجب أن يكون «الحياة هبة من الله، ويجب أن توظف لأهداف خلاقة. كل بني الإنسان حباهم الله بخصائص فريدة، وإنه نقيض لخطة الله في الكون أن يعيش الإنسان ليحارب ويقتل فقط.

كل الخلق يجب أن يعيش ويوظف قدراته توظيفاً صالحاً. كل التقدم الذي نراه في هذه الدنيا لم يتحقق على أيدي من حارب وقتل، بل تحقق على أيدي أولئك الذين وظّفوا حياتهم التي وهبها الله لهم توظيفّا خيّرا.

لو لجأ الإنسان في كل بقاع الأرض إلى الحرب لم يكن ليحدث أي تقدم وتطور، وحتى وسائل الحرب الحديثة التي يستخدمها المتطرفون لم تكن لتظهر إلى الوجود.

لايـزال سـواد عظيـم مـن المسـلمين حتـى يومنـا هـذا، متأثريـن بطريقـة تفكـير المقاتلـين الليبيين. إن عنف المسـلمين اليـوم، ينبثق عن طريقـة التفكـير هذه.

تـدرك الجماعـات الإسـلامية التـي تمـارس الإرهـاب جيـداً قـوة الأطـراف الأخـرى، وتعلـم أن أعمالهـم والعنـف الـذي يمارسـونه لـن يكـون لـه أي تأثـير، ولكنهـم يواصلـون أعـمال العنـف. إن الدافع وراء هـذا العنـف هـو الاعتقـاد الباطـل إن ممارسـة العنـف تحت مسـمّى الجهـاد وقتلهم فيه شـهادةً ومصيرهم إلى الجنـة والنعيم الدائمين، هذا الاعتقـاد باطـل ولا يوجد أفراد أو جماعات تسـعى لقتل المسـلمين، بل عـلى العكـس من ذلك، فالمسـلمون هم من اسـتحدث نظريـة المؤامرة لإلحـاق الـضرر أو قتـل المسـلمين. هـذا الخوف غـير الطبيعـي الذي لا أسـاس لـه يدفعهـم إلى العنـف وسـاحات القتـال، فهـو الأمـر الـذي لا يـؤدي إلا إلى مزيـد مـن التقهقـر والانحطـاط. كل الأحـداث ماهـي إلا هجومـات قـام بهـا المسـلمون أدت إلى ردود أفعـال مـن الغـير .

الشـاعر السـوري المعـروف خـير الدين الـزركلي توفي عـام 1976م. في كتابـه «الأعـلام» الـذي يتكـون مـن مجموعـة مجلـدات ذكـر فيهـا أعـلام المسـلمين في المـاضي قـال: إن المسـلمين يمكـن لهـم النهـوض من جديـد، إذا ظهـر مـن جديـد رجـل بعظمـة الأولـين. وفي أحـد أشـعاره عبّرعـن هـذه العواطـف قائلاً:

هات صلاح الدين ثانيا فينا وجدد حطين أو شبه حطين

تعكـس هـذه الأبيـات الشـعرية للـزركلي تفكـير المسـلمين المعاصريـن. دوّن الأدب الإسـلامي انتصـارات صـلاح الديـن الأيـوبي والقـادة المسـلمين في الحقبـة التاريخيـة الأولى للمسـلمين بتفصيـل

دقيـق مـما أدى إلى اعتقـاد المسـلمين أنـه إذا ولـد رجـال مـن أمثـال صـلاح الديـن فسـيقودهم إلى النصرالـذي تحقـق لهـم سـابقا في القرن العشريـن. هـذا التفكـير يعبرعـن فقـدان للمعرفـة الدقيقـة بالعـصر الحديـث. المسـلمون غـير مدركـين أن النـصر (نـصر صـلاح الديـن) في القـرن الثـانى عـشر لايمكـن تحقيقـه في هـذا العـصر. لقـد ظهـر قـادة مـن أمثـال صـلاح الدين، كسـيد قطـب وياسرعرفات وقـادة مجاهدين آخريـن، ولكـن لم يتمكنـوا مـن تحقيق أى تقدم للمسـلمين. الحنين إلى عـودة صـلاح الدين هو للأسـف عـدم إدراك لحقائق العـصر الحديث. عـلى المسـلمين إدارك أن القـوة في هذا العصر لا تقـاس بالحرب، ولكن تقـاس بمـدى التقـدم العلمـي والتكنولوجـى.

فى هـذا اليـوم، وفي هـذا العصرالطريـق الأكيـد للنجاح هـو العمل في نطـاق العوامـل الفاعلـة السـابق ذكرهـا، وعدم الأخذ بعـين الاعتبار متطلبـات العـصر وإملآتـه هـو السـبب في ذهـاب أعـمال المسـلمين ومجهوداتهـم أدراج الريـاح.

لماذا ينضم الشباب إلى الجماعات الارهابية؟

ينضـم الشـباب في عصرنـا هـذا بأعـداد كبـيرة إلى الجماعـات الإرهابيـة، ويظـن البعـض أن هـذه الظاهـرة غير قابلة للتفسـير. ولكن مـن واقـع التجربـة يمكـن لنـا توضيحهـا بمصطلحـات قابلـة للفهـم. الشـباب لديهـم طاقة ونشـاط كبـير، ولديهـم الرغبة في القيـام بأعمال ثوريـة، وهـم قـادرون على تسـخير أنفسـهم لأهـداف عظيمة، لإشـباع هـذه الرغبـة عملنـا أنـا وزمـلائي بطريقـة ناجحـة إلى حـد كبـير.

إن العلـم بحـماس ورغبـة هـؤلاء النـاس للأنشـطة والأعـمال الإيجابيـة، قادنـا إلى عمـل مـشروع عالمي ذي طبيعة مسـالمة. قام هذا

المشروع على العمل على توزيع تراجم معاني القرآن الكريم وبعض المطبوعات المساعدة إلى كل أمم العالم. ولنجاح هذا المشروع قررنا ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الرئيسة، للتعريف بالإسلام، وحاليا لدينا مطبوعات لتراجم القرآن الكريم بعشر لغات عالمية.

عندما أطلقنا المشروع انضم إليه شباب كثير من المسلمين وغير المسلمين بحماس كبير، وقاموا بعمل برامج عمل بأنفسهم لأجل أن تصل التراجم إلى الناس كافة في مختلف أرجاء العالم. وحقيقة إن أخبار القرآن والإسلام أصبحت مادة للبحث وموضوعا للإعلام المعاصر. وأحدث ذلك استعدادا عند الآخرين لقبول نسخة من تراجم معاني القرآن الكريم، الأمر الذي شجع كل المشاركين في هذا المشروع على نطاق واسع.

خلال مؤتمر عالمي عقد بتاريخ 20 - 30 أبريل 2015م، في أبو ظبي تحت إشراف منتدى تعزيز السلام في المجتمعات الإسلامية ألقيت خلال هذا المؤتمر كلمة نوهت فيها على ضرورة إيجاد بديل عملي ذي صبغة سلمية إذا أردنا فعلا تغيير شاكلة التفكير لدى الشباب، وأفضل البدائل هو نشر القرآن الكريم وتوزيعه على مستوى العالم.

هذا الهدف وضعه رسول الإسلام في القرن السابع الميلادي، فقد ورد في سنته صلى الله عليه وسلم قوله أن القرآن كلمة الله ستصل كل بيت (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار...)[45]، لم يكن هذا الحديث إلّا نبوءة في عصر النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولكن اليوم في عصر التكنولوجيا الحديثة والاتصالات صار من الممكن تحقيق هذه النبوءة على أعلى مستوى.

45- مسند الأمام أحمد، حديث رقم (23814).

العنـف باسـم الإسـلام صـار مـادة إعلاميـة في كافـة أنحـاء العـالم، وهـذا الحـال جعل مـن القرآن مـادة للنقاش وزاد من فضـول الآخرين لمعرفـة رسـالة القـرآن ودراسـته والخـير الكثـير الـذي يمكـن أن تقدمه للشـباب هـو إعطاؤهـم هـدف تبليـغ القـرآن لمـن أراد أن يتعلم.

يجـب عـلى الشـباب المسـلم النهـوض لنـشر رسـالة القـرآن في كل أنحـاء العـالم، وهـذا العمـل أكـثر بملايـين المـرات جاذبية عند الشـباب المسـلم مـن جاذبيـة الإرهـاب. المشـكلة الأساسـية والوحيـدة هـي أن الشـباب المسـلم لم يفتـح لهـم مجـال الإدراك والوعـي بهـذه المهمـة، وإذا ماتـم توضيـح أهمية هذا العمل للشـباب المسـلم بلغة يفهمونها سـينبذ - بـكل تأكيـد - الشـباب الإرهـاب، ويسرعون الخطى في سـبيل مهمـة نـشر القـرآن الكريـم وتوزيعه.

أحـد الأبحـاث المعـاصرة تؤكـد عـلى أن ظاهـرة الإرهـاب لهـا صلـة مبـاشرة بالحـاضر. الخبـيرة بالعلـوم السياسـية (ف.ب فورتونـا) مـن جامعـة كولومبيـا بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة في رسـالتها عـن الإرهـاب ذكـرت التـالي: الإرهاب وسـيلة رخيصـة الثمن لإلحـاق الأذى والألم بالآخريـن[46].

إن الثقافـه الإرهابيـة المعـاصرة هي نتيجة لتغذية مشـاعر الغضب، فـما الـذي يفعلـه الإرهابيون سـوى إلقـاء قنابلهم السـلبية المتغلغلة في أعماقهـم عـلى أعدائهـم المزعومين. يجـب أن يوضح لهـم أن بين أيديهم سـلاحاً أقـوى ألا وهـو القـرآن الكريم، قنبلـة إيجابية أكثر تأثـيراً وفاعلية بملايـين المـرات من قنابـل العنف التي يلجأون إلى اسـتخدامها. سـينجح

46- Virginia Page Fortna, “Do Terrorists Win? Rebels’ Use of Terrorism and Civil War Outcomes,” International Organization, Vol. 69, Issue 03, Summer 2015, pp. 519-556.

هذا التوجّه على أن يشجع الناس على استبدال منهج العنف بالسلام. هذه الحقيقة جُرّبت فيما مضى في عهد الإسلام الأول. كان العرب مجتمعاً قبلياً في ثقافته، تبنى ثقافة السيف في مواجهة الأعداء، ولما أُنزل القرآن الكريم كان البديل الإيجابي لتلك الثقافة. لقد حولت أيديولوجيا القرآن العرب إلى أبطال السلام.[47]

انطلق المسلمون خارج حدود المنطقة العربية ونشروا رسالة القرآن في كافة الأرجاء. كتب عالم الإنثروبولوجيا آرثركيت كتابه بعنوان: «نظرية التطور الجديدة»(1948)، عرج فيه على ذكر تاريخ مصر القديمة، وعلق فيه على كيفية دخول المصريين إلى الإسلام قائلا: «لم تفتح مصر بالسيف بل بالقرآن».[48]

إذا أدرك المسلمون أن القرآن هو البديل فسيشهد العالم كيف أن منفذي أعمال العنف بالأمس هم أبطال السلام اليوم.

السلام عن طريق التعليم

الروائي الروسي الشهير ليو تولوستوى (1828 - 1910م) اعتبر من أعظم الروائيين على مر الزمن، كتب قصة قصيرة عنوانها (حكمة الأطفال) وطبعت أول مرة سنة 1885م، ذكر في هذه القصة ملاحظة عندما شاهد بعض الأطفال يلعبون. والأمرالذي أثار انتباهه هو أن الأطفال خلال اللعب يدخلون في نقاشات حادة ولكن خصامهم لا تعقبه كراهية ومواجهة، بل يعودون سريعا إلى اللعب من جديد كما بدؤوا أول مرة.

47- Phillip K. Hitti, The Arabs: A Short History, Washington DC, Regnery Publishing, 1996, p. 57.
48- Arthur Keith, A New Theory of Evolution, London, Watts & Co., 1948, p. 303.

تولسـتوى اعتـبر أن هـذا هـو نمـوذج الطبيعـة لحيـاة السـلام. الاختلافـات تظهـر بـين البـشر، ولكـن يجب ألا تتعـدى التعبـير اللفظي، ولايجـب ان تـؤدّي إلى مشـاعر الكراهية والعنف والحـروب.. لقد كانت روايـة تولسـتوى تقـوم على فحوى هـذا النموذج الـذي تقدمه الطبيعة.

إنهـا لحقيقـة أن نمـوذج الطبيعـة يماثـل مانجده في حيـاة الأطفال في مرحلـة التكويـن، ذلـك لأن «الأنـا» لازالـت في مرحلـة التطـور. إنهـم يعيشـون مرحلـة ماقبـل «الأنا»، ولكنهـم عندما يكـبرون ليكونوا جـزءاً مـن المجتمـع، تختلـف أفعالهـم وسـلوكياتهم. إن كل التحديات والمشـاكل في الدنيا هي ظاهرة النمو أو التقدم في السـن عند الأطفال، عندمـا يكـبر الأطفال، تنمو «الأنـا» لديهم ويتحولـون إلى أنانيين. كيف يمكـن للنمـوذج الخـالي مـن «الأنـا» أن ينطبق عـلى «الأنا»..؟

في مرحلـة الطفولـة يحكـم سـلوك الإنسـان فطرتـه التـي فطـر عليهـا ولكـن عندمـا ينضـج الإنسـان فالـذي يحكم سـلوكه هـو الوعي والإدراك. الآن أصبـح دور الفطـرة في حكـم سـلوك الأطفـال محـدوداً، والمطلـوب في هـذه المرحلـة هـو تطوير طريقـة تفكير الراشـدين حتى يتمكنـوا مـن التعامل بسـلوك الأطفال عـلى وعي وإدراك وقـوة إرادة.

كتـب تولسـتوي وأدبـاء آخـرون العديـد مـن الرويات التـي كانت مصـدراً للترفيـه والاسـتمتاع، ولكنهـا لم تكـن أداة للتدريـب المنهجـي للعقـل البـشري. مـن أجل التدريـب الواعي للقراء فإنـه من الضروري كتابـة مايخاطـب العقـل والمنطـق، ومثل هـذه الكتب يجـب أن تقوم عـلى الحقائـق التاريخيـة مستشـهدة بالمعرفـة العلميـة، ويجـب أن تقـدم أمثلة لخبرات وتجارب شـخصيات حقيقية لا شـخصيات خيالية.

الخيـال يعنـى بالحـس الترفيهـي ولايخاطب عقلـه. عندما نتحدث عـن شيء بالمنطـق الخيـالي، فـإن ذلـك لا يعود بأيـة نتائـج ذات قيمة، ولـن يحـدث أي تغيـير جـذري حقيقي في حيـاة الأفراد وسـلوكهم.

أعظـم قـدرات الإنسـان ومواهبـه هـي القـدرة عـلى التفكـير العقـلاني، لقـد قيـل إن الإنسـان حيـوان يفكر. قـراءة الروايـات مصدر للترفيـه والتسـلية، ولكـن إذا أردنا إحداث ثورة في حيـاة الأفراد، فعلينا أن نقـدم الحقائـق بطريقـة تقـوم عـلى المعرفـة الحقيقيـة والتفسـير العقـلاني، هـذا هـو السـبيل الوحيـد الـذي يمكننـا مـن خلالـه إحداث ثـورة وتغيـير في طريقـة تفكير الأفـراد، ولا يمكننا إحـداث أي تغيير ذي فائـدة ونفـع إلا بالثـورة الفكريـة.

إن بنـاء مجتمـع يقـوم عـلى السـلام، يحتـاج إلى إعـادة هندسـة العقـل البـشري، وهـذه المهمـة يمكـن القيـام بهـا عـن طريـق التعليم، ولعـل التعليـم غـير النظامـي أقـرب مـن التعليـم النظامـي. المقصـود بالتعليـم غـير النظامـي هو تحصيـل المعرفة عن طريـق الإعلام والأدب والنـدوات والمؤتمـرات وعـن طريـق الحـوار.... الـخ

هنـا أنـا اتحـدث عـن السـلام مـن وجهـة نظريـة، ولكننـي خضـت التجربـة العمليـة في مدينـة كشـمير، حيـث عملـت عـلى تعليـم التفكير السـلمي منـذ سـنة 1968م، ولا زلـت أبذل قصارى جهـدي لتحقيق هذا الهـدف. ولقـد حـدث تغيرعظيـم نتيجة لهـذا العمل، واليـوم تجد في كل بيت من بيوت الكشـميريين مادة علمية تدعو إلى السـلام وتعلم السـلام.

في سـنة2011م، نظمنـا اجتماعاً مع الكشـميريين الذين لهم معرفة بأفكارنـا، وبهـذه المناسـبة قـال أحـد المتحدثين نيابة عـن مجموعة من الكشـميريين، إنهـم تقدمـوا بخطـى بعيـدة مـن أكتوبـر1968م حتـى

أكتوبـر 2011م، لقـد كنـا نرمـي الجيـش الهنـدي بالحجـارة، واليـوم نقـدم لهـم مطبوعـات وأدبيات السـلام.

بعـد أن كانـت كشـمير سـاحة للعمليـات العسـكريه منـذ سـنة 1947م، صـارت إلى حـد بعيـد بلد سـلام، وإذا ما مورسـت أعمال عنف فهـي لا تحـدث على أيـدي الكشـميريين، ولكنها نتيجة لحـرب بالوكالة تحـت إشراف أيـد خارجيـة ورعايتها.

المثـال أعـلاه تحقيـق السـلام عـن طريـق التعليـم يمكن ممارسـته في أي مـكان، وأكـثر الطـرق تاثـيرا ونجاحـا لإحـلال السـلام هـو طريـق واحـد ألا وهـو التعليـم.

إن أفضـل طريقـة لإحـداث التغيـير في المجتمعـات هـي التعليـم . قبـل عـصر الطباعـة لم تكـن الكتـب متوفـرة، ولذلك كان مـن الصعب تعليـم النـاس عـلى مسـتوى واسـع النطـاق، والحـرب هـي مـن بقايـا العـصر القديـم، عندمـا حـاول النـاس إحـداث التغيـير بالقـوة الأمـر الـذي ينتهـي دائمـا إلى شـن الحـروب.

اليـوم نعيـش في عـصر الطباعـة، والكتـاب أصبح متوفـراً مما جعل إحـداث التغيـير ممكنـاً فى المجتمعـات بالتعليـم عـلى مسـتوى واسـع النطاق.

إن أولئـك المنشـغلين بالحـرب لأجـل الإصـلاح يبرهنـون على عدم علمهـم ودرايتهـم بهـذه الحقائـق، ولـو أنهـم أدركـوا لألقـوا السـلاح جانبـا وأعملـوا جهدهـم وإمكاناتهـم في مجـال التعليـم.

الفصل السادس:

السلام في العالم الإسلامي

الطمأنينة هي الأهم

العقل مـن أهم ملكات الإنسـان، وبيئة السـلام هي البيئة المناسـبة والمهمـة ليعمـل فيهـا العقـل ويبذل أقـصى طاقاتـه. فالعقل مـن أعظم الهبـات التـي أنعـم الله بهـا عـلى الإنسـان، وكل الإنجـازات البشرية إنما هـي ثمـار النشـاط العقـلي. ولـكي يـؤدي مهمتـه ويعمـل بـكل هـدوء يحتـاج إلى السـلام الـذي بدونـه مـا كانـت ولـن تكـون هنـاك إنجـازات عـلى الإطلاق.

لقـد اسـتمر حكـم الأمبراطوريـة الرومانية لأكثر من ألفـي عام، ولم يحـدث تقـدم علمـي عـلى مـدى هذه الفـترة الطويلـة، ويعـزو معظم المؤرخـين هـذا الأمـر إلى انعـدام حرية الفكر، فكل مـن يعبر عن وجهة نظـرٍ تخالـف نظـر الملـك يقتل، فالقـول السـائد هو: «الملـك لا يخطئ أبـداً « فهـو الشـخص الوحيـد الذي يحق لـه أن يفكـر، وكل تفكير غير تفكـيره يقمـع وبـكل قـوة، لـذا كان من الطبيعـي أن يؤدي هـذا الجو إلى الركـود الفكـري الكامل.

لقـد وضعـت الثـورة الفرنسـية نهايـةً لنظـام الحكم الملـكي الوراثي الـذي كان سـائداً، وبهـذا انبلـج فجـر الديمقراطيـة مـما أدى إلى ظهور حريـة الفكـر الفـردي. ففـي المـاضي كان للملـك الحـق في التفكـير، أما اليـوم فالحـق مكفـولٌ للجميـع، فـكل فـرد يحـق لـه أن يفكـر، وبهـذا تضاعفـت عمليـة النشـاط الفكـري مليـارات المـرات، وفتحـت الثـورة الفكريـة البـاب أمـام العلـماء ليعملـوا الفكـر مـما أدى إلى ظهـور الاكتشـافات العلميـة الحديثـة.

إنّ تقـدم وسـائل المواصلات عـلى سـبيل المثـال، كان بسـبب الأبحـاث العلميـة حيـث كانت هـذه الإمكانات مخفيـةً في الطبيعة في

صورتها الأولية، ثم أصبحت حقيقة واقعة، فطبقاً للخطة الربانية كل شيءٍ يوجد في حالته الأولية كهذه المنح التي ظهرت في العصر الحديث. إنّ الذين ينخرطون في الأعمال الإرهابية يسيرون عكس الخطة الإلهية بتقويضهم للسلام، وطبقاً لسنن الله فإن وجود السلام الشامل والكامل في العالم ضروري ليتمتع كل فرد بالحرية الكاملة حتى يفكر ويعمل دون تدخل أحدٍ، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تحويل كل ما هو كامنٌ في الطبيعة إلى حقيقةٍ واقعة. فعندما يقوم الإرهابي بقتل شخص ما فهو بذلك يقضي على عقلٍ يفكر، ولو قتل أكثر فإنما يقضي على عقولٍ أكثر، وبناءً على ذلك فعندما تقوم مجموعة ما بأنشطة مسلحة لتحقيق أهدافِها الخاصة فهذا وبدون أدنى شكِ يعرض النظام الرباني للخطر.

إن العقل البشري يعد إمكانية عظيمة، لكنه لا يعمل إلا في وجود السلام، فبغياب بيئة السلام ستبقى إمكانات العقل الكامنة راكدة دون استغلال، ولن يتاح استغلالها أبداً. وبهذا فإن من ينخرطون في الأنشطة الإرهابية إنما يمارسون أعمالاً تضاد الطبيعة وتعارضها.

إنّ الأحداث والتجارب تؤكد على هذه الحقيقة، فمنذ انخراط المسلمين في هذه الأنشطة في العصر الحديث، لم يظهر إلى النور أيّ تقدمِ أو تطورِ علمي في العالم الإسلامي، لقد تحولت المجتمعات الإسلامية جميعا إلى مجتمعات مستهلكة وغير منتجة عكس ما كانت عليه في الماضي.

طبقاً للمبدأ الذي نجده في الطبيعة الذي عبر عنه القرآن على النحو التالي: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، (سورة الرعد

17). يتبـين لنـا أن الذيـن يبرهنـون عـلى أنهـم نافعـون هـم فقط من يسـتحقون النجـاح. إنّ الذيـن ينخرطـون في الأنشـطة الإرهابيـة في العـالم الإسـلامي هـم العائـق الدائـم أمـام تطـور المسـلمين وتقدمهم. فعـلى هـؤلاء أن يوقفـوا الأنشـطة الإرهابيـة ويقوموا بدفن أسـلحتهم فـورا حتـى يعـم السـلام العـالم الإسـلامي بالكامـل وينتشر مـن جديدٍ، وليبرهنـوا عـلى أنهـم مجتمـع منتـجٌ وخـلاق.

إنّ البـلاد التـي ينتـشر فيهـا الإرهـاب ينهار فيهـا التعليـم والتطور العلمـي، أمّـا التـي يعـم فيهـا السـلام فينتـشر فيهـا التقـدم ليعـم كل المجـالات، وهـذا يـدل عليـه المثـل الـذي يقـول: (حيثـما حـل السـلام ظهـر التطـور والتقـدم في كل المجـالات، أمّا العنف فيقـضي على جميع الأنشـطة البنـاءة.) إذ لا يمكـن أبـداً الحصـول عـلى أي هـدف خـلاق عـن طريـق الحـرب والقتـال، فـلا يمكـن زرع شـجرة أو إنشـاء مدينـة نموذجيـة أو مجتمـع متمـدن متعلـم عـن طريـق القتـال.

إنّ الذيـن ينخرطـون في الأنشـطة الحربيـة يبرهنون عـلى أنهم غير واعـين ولا مدركـين لحقيقـة الحيـاة، فمحاولتهم الحصـول على أهداف إيجابيـة بهـذه الطريقـة هـو بمثابـة حكـم جائـر ضـد الإنسـان وضـد الخالـق. إنّ الكـون بكاملـه نمـوذجٌ للسـلام إلا أنه سـلام مجبـول وليس بالاختيـار، واللـه العـلي القديـر شـاء أن يخلق الإنسـان الـذي يمكنه أن يختـار السـلام عـن محـض إرادتـه أي سـلام باختيـار، وأسـكنه الأرض ووعـد كل مـن ينجـح في هـذا الاختبـار بالجائـزة العظمـى، أمـا مـن يختـار ثقافـة العنـف فإنمـا يسـير ضـد خطـة اللـه في الخلـق، وبهـذا يعـرض نفسـه للحرمـان مـن هـذه الجائـزة التـي هـي وعـد مـن الله.

إنّ عقليـة هـؤلاء إنمـا تـؤدي إلى تعطيـل التفكـير الخـلاق وهـذا يـؤدي إلى الركـود والجمـود الفكـري، ويا لها من خسـارة فادحة تجعل الاسـتمرار في العنـف ولـو لحظـة واحـدةٍ عمـلاً لا مـبرر له.

جدول أعمال لم يكتمل

حـين ترأس الجـنرال راحيل شريـف القائد الأعلى للقوات المسـلحة الباكسـتانية المؤتمـر المنعقـد في الأكاديميـة العسـكرية للدفـاع بإسـلام أبـاد في يونيـو 2015م، أعلن» أن كشـمير وباكسـتان لا يمكن أن تنفصلا وأنّ ضـم كشـمير هي الغايـة السـامية التي يسـعى لتحقيقها»[49]

إنّ مقولتـه هـذه تظهـر جانبـاً كبـيراً عـن العقليـة العسـكرية للمسـلمين في وقتنـا هـذا، وهـي السـبب مـن وراء انخـراط المسـلمين في أعـمال العنـف في بقـاع الأرض جميعـاً، فالبعـض قـد انخـرط فيـه مبـاشرة، أمّـا الآخـرون إنمـا يفكـرون عـلى الشـاكلة نفسـها.

ظاهريـاً هنـاك جماعـات وطوائـف متعـددة داخـل المجتمـع المسـلم، إلا أنهـا جميعـا تحمـل فكـرة مشـتركة واحـدة، وهـي أن لهـا غايـةً سـامية لم تـدرك وتسـعى جاهـدا لتحقيقهـا. يبـدأ الحافـز عـلى مسـتوى العقـل، وسرعان مـا تبدأ المطالبـات والاحتجاجـات، وفي نهاية المطـاف يسـتخدم العنـف، فـما هـي الغايـة السـامية التـي لم تتحقـق بعـد؟ لـدى البعـض هـي كشـمير، والبعـض الآخـر هـي القـدس، وعند آخريـن هـي الخلافـة، أو تطبيـق الشريعـة، هـذه هـي الغايـات التـي يقاتـل المسـلمون مـن أجلهـا أعـداء مفترضـين، ولكن رغم مـضي فترات طويلـة مـن الزمـن لم تتمكـن أي مجموعـة مـن تحقيـق غايتهـا هذه.

49- Mateen Haider, "Pakistan and Kashmir are inseparable: General Raheel Sharif," Dawn, June 3, 2015, <www.dawn.com/news/1185928>, [accessed July 19, 2015].

لمـاذا – إذن - هـذا الفشـل؟ هناك آيـة قرآنية تلقي الضوء على هذه المسـألة حيـث يقـول الله تعـالى: ﴿ وَلَا تَهِنُـوا وَلَا تَحْزَنُـوا وَأَنـتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنـتُم مُّؤْمِنِـين ﴾، (سـورة آل عمران 139). وآيـات عديدة أخرى تبين أن النجـاح في هـذه الدنيـا حليـف من يسـير وفق السـنن الإلهيـة، ومن يخالفهـا فلـن يتحقـق لـه النجـاح، وهـذه السـنن لا تحـابي أحـداً سـواء كانـوا مسـلمين أو غيرهم.

هـذه السـنن تعنـي أن الغلبـة السياسـية لا تكـون دائمـا لصالـح مجموعـة مـا، فقـد تكـون في أيـدي البعـض في زمـن مـا، ثـم في أيـدي آخريـن في وقـت آخـر ولقـد ذكـر هـذا المبـدأ في مواضـع عديـدة في القـرآن، عـلى سـبيل المثـال سـورة آل عمـران، الآيـة 26:﴿ قُـلِ اللَّهُـمَّ مَالِـكَ الْمُلْـكِ تُؤْتِي الْمُلْـكَ مَـن تَشَـاءُ وَتَـنزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّن تَشَـاءُ وَتُعِزُّ مَـن تَشَـاءُ وَتُـذِلُّ مَـن تَشَـاءُ ﴾.

طبقـاً لهـذا المبـدأ فـإن عـدم تحقيـق أحـد مـا لهدفـه رغـم الحـرب والقتـال دليـل على أنـه يخوض حربـاً في غير محلها. إنهـا محاولة تحقيق هدف مسـتحيل طبقا للقوانين الربانية. إن المبادرة بإعلان الحرب في هذا الوضـع أمـر مسـموح بـه، أما الاسـتمرار فيها فليـس له مـبرر. فقد تعلن جماعـة مـا الحـرب لتقديـرات خاطئـة ثـم تـدرك أنها فشـلت في تحقيق هدفهـا المطلـوب رغم التضحيـات العظيمـة في الأرواح والأمـوال، عندها يتوجـب عليهـا أن تتوقف حـالا، وتغير وجهتها إلى الوجهـة الصحيحة، في هـذه الحالـة فـإن البداية الخاطئة يمكـن الصفح عنها، أما الاسـتمرار على الخطـأ نفسـه فهـو أمر مرفـوض رفضا تامـا ولا يمكـن الصفح عنه.

تنخـرط العديـد مـن الجماعات الإسـلامية اليـوم في القتـال لتحقيق غايتهـا السـامية غـير المدركة، ولكـن الأحداث تظهـر أنها جميعـاً تواجه

الفشل التام، لقد حان الوقت أمام الجميع لأن يتوقفوا ويغيروا وجهتهم ويسلكوا الطريق الصحيح، إنه من الضروري على كل مجموعة أن تضع حدا لهذا الأمر وتتوقف عن القتال ولتكتشف من خلال دراسة القرآن والسنة النبوية العمل الذي يتوجب عليها القيام به.

إن العنف لا يعد أبدا الخيار أمام المسلمين، ولا يجب أن تكون غايتهم الكفاح من أجل تحقيق الأهداف السياسية.

ليس أمام المسلمين إلا خيار وحيد ألا وهو الانخراط في نشاط الدعوة السلمي.

يتبين لنا من خلال دراسة القرآن أنه منزل للناس كافة، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾. (سورة الفرقان 1)، لذا فإن الغاية السامية التي لم تدرك بالنسبة للمسلمين هي واحدة وهي تبليغ تعاليم القرآن ونشرها في العالم أجمع.

على المسلمين أن يدركوا أن عدم نجاحهم في كل المجالات التي يخوضون فيها إشارة وتنبيه رباني لهم، وعليهم أن يعلموا أن الله غير راض عن الأنشطة التي يمارسونها اليوم، إن ما يرجوه الله منهم هو العمل من أجل الغاية المطلوبة الصحيحة، ولو أنهم قاموا بذلك فسيستحقون نصرة الله، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة الحج 40).

إن الله في انتظار أن يمن بنصره على الذين يختارون القيام بالهدف الصحيح وهو النشاط الدعوي السلمي.

منهج الجنرال ديجول

عندما بدأ الاستعمار الأوربي في الانتشار في كل الجهات خلال القرن السادس عشر اتجهت بريطانيا لاستعمار الدول الآسيوية، أما فرنسا فقد اتجهت إلى أعماق القارة الأفريقية، حيث استولت على الجزائر سنة 1830م. وكان ذلك بداية الاستعمار الفرنسي لشمال أفريقيا، ثم استولت بعد ذلك على عدد كبير من الدول الإفريقية حيث بلغت الدول التي وقعت تحت حكمها 15 دولة.

لقد حرص الاستعمار الفرنسي على أن يكون الحكم السياسي لهذه الدول شديد الصرامة، فقد كان حكماً بغيضاً عند الشعوب الإفريقية، مما أدى إلى ظهور العديد من الحركات التحررية، فكان على الفرنسيين أن يرسلوا الجيوش تلو الجيوش لإخماد هذه الثورات حتى تبقى هذه الدول تحت سيطرتهم مما أدى إلى ارتفاع الميزانية العسكرية فوق الطاقة فلم تعد محتملة، وهذا نتج عنه تأخرها في مجالات عديدة لحد كبير. فقد تأخرت في السباق النووي أمام قريناتها من الدول.

وعندما تولى الجنرال شارل ديجول حكم فرنسا سنة 1958م، كان الانحطاط الاقتصادي قد بلغ مستوى خطيراً جدا، فأصبح اهتمام الرئيس ديجول منصباً على أن يجعل لفرنسا مستقبلاً جديداً وحياة جديدة بدل المحافظة على عزتها وكبريائها، وعندما فكر في الأمر بموضوعية وصل إلى نتيجة مفادها أنه لكي يصل إلى غايته عليه أن يمنح الاستقلال لكل المستعمرات الفرنسية في إفريقيا، وبهذا دخل في مفاوضات مع القادة الأفارقة، وفي خلال فترة وجيزة منح الاستقلال للدول الإفريقية التي كانت تحت الحكم الفرنسي.

لقد كان حلاً جذرياً، إلا أنه توجب على ديجول أن يدفع الثمن الباهظ حيث أقيل عن الحكم في سنة 1969م لانهيار شعبيته، حتى أن ذكرى وفاته لم تخلد أبدا. وبالرغم من ذلك فإن تقدم فرنسا السريع كان سببه سياسة ديجول هذه، فقد أصبحت الدولة الأولى في أوربا في مجال العلوم النووية. على القادة الإسلاميين اليوم أن يأخذوا الدرس من هذا المثال، فقيادتهم للمسلمين لم تقدم مكاسب إيجابية بل على العكس من ذلك كان لها نتائج سلبية ضد المسلمين، لذا توجب على القادة الذين يتصدرون المشهد القتالي اليوم أن يغيروا سياساتهم تغييراً جذرياً، إذ عليهم أن يتخلوا عن استعمال العنف وأن يتبنوا الأسلوب السلمي. إن سمعتهم كقادة حتما ستتأثر بسبب سياسة التغيير الجذري هذه، إلا أنه بالنسبة للمجتمعات الإسلامية جميعا وبكل تأكيد ستبدأ مرحلة التقدم في مجالات البناء والرقي لكي تصبح مجتمعات ناهضة، بدل كونها مجتمعات متخلفة.

إن الجانب الأعظم لهذا الأمر هو أن نظرة الناس للمسلمين ستشهد تغيرا عظيما نحو الأفضل، حيث أدى خوض المسلمين في الأنشطة الحربية التي استمرت لفترات طويلة إلى وصف الإسلام لدى الجميع بأنه دين العنف. ولو أن المسلمين سلكوا أسلوب السلام فإنه يمكن أن يعرف الإسلام بأنه دين السلام الذي يحث أتباعه على العمل والعيش في سلام. في الواقع إن تقديم صورة صحيحة عن الإسلام يعد من الأشياء العظيمة التي يمكننا القيام بها.

إن العمل الذي قام به شارل ديجول ليس سياسة خاصة به، بل سياسة مبنية على أسس من السنن الكونية، إنها السياسة المتعارف عليها بالاستدارة على شكل حرف «يو» باللغة الأنجليزية أي تغيير الاتجاه بالكامل.

يقـال: مـن يخطـئ فهـو بـشر، فـكل فـرد أو دولـة مـن الممكن أن يرتكـب الأخطـاء، فـإذا وجـد أحدنـا أن أنشـطته ليسـت مثمـرة ولا تعطـي النتائـج المرجـوة وجـب عليـه أن يكـون عـلى أتـم الاسـتعداد لمراجعـة سياسـته في الحـال، وعليـه أن يغـير اتجاهـه فـوراً، إن ارتكاب الأخطـاء في كل الأحـوال ليـس أمـرا لا عـلاج لـه، بـل كل مـا يتطلبـه النجـاح هـو مراجعـة السياسـة وتغـير الاتجـاه.

هناك البعض من القادة الإسـلاميين في هذا الزمان قد سـلك منهج العنـف وليـس الجميـع، ونتيجـة لأوضـاع العـصر الحديـث حـاز هـذا الأسـلوب عـلى تأييـد الغالبيـة العظمـى مـن المسـلمين، إلا أن التجارب أثبتـت أنـه ليـس الخيـار الصحيح حيث لم يعـط الثمار المرجـوة، وبناء عـلى هـذا وجـب القبول بالتضحية بالتخلي عنه وسـلوك مسـلك جديد حتـى ولـو كان الوقـت متأخـرا، وذلـك بمراجعـة سياسـتهم بالكامـل، فهـذا أفضـل مـن لا شيء عـلى الإطلاق.

إن الديجوليـة ليسـت سياسـة الجـنرال الفرنـسي لوحـده بـل هـي سياسـة تسـير عـلى خطـى سـنن الكـون، إن النواميـس أوسـنن الكـون توضـح لنـا أنـه عندمـا لا نحصل عـلى النتائـج المرجوة وجـب علينا أن نكـون على أتم الاسـتعداد لتبني اسـتراتيجية التراجـع، فالتراجع يعد في ظـروف عديـدة نوعـاً مـن التقـدم إلى الأمام.

الفصل السابع:

الإسلام والسلام

الإسلام دين السلام

هنـاك قاعدتـان أساسـيتان في الإسـلام هـما التوحيـد والسـلام، فالتوحيـد يعتـبر الأيديولوجيـة الأساسـية للإسـلام، فهو المصـدر المباشر وغـير المبـاشر لكل الأعمال في الإسـلام، أما السـلام فهـو الجانب العملي للإسـلام، حيـث يكـون الأسـاس لبيئـة طبيعيـة تفسـح المجـال لتـمارس عمليـا أيديولوجيـة الإسـلام وتعاليمـه.

عنـد دراسـة القـرآن، فإننـا نجد أنه يعطـي اهتماماً عظيـماً للآخرة وليـس للحيـاة الدنيـا، لأن الحياة الآخرة حيـاة أبدية، أمـا الحياة الدنيا فإنهـا زائلـة، وطبقـا لعقيـدة القرآن فـإن العمل من أجل الحيـاة الدنيا إنمـا هـو بمقتـضى حاجـة، أمـا العمل للآخـرة فهو الهـدف، لـذا نجد أن الذيـن قـد تأثروا بأيديولوجية الإسـلام قـد تحول تركيزهـم بالكامل إلى الآخـرة والجنة.

تبعـاً لهـذا كان من الطبيعي أن تكون أسـباب الحرب وما يسـعرها كالحسـد والثـأر والعنـف والكراهيـة أمـوراً غـير مرغوب فيهـا، فحيثما سـيطرت ثقافـة الإسـلام وحلت فلـن يبقـى أي وجود لأسـباب الحرب، وكان اختيـار النـاس مـن تلقاء أنفسـهم العيش باعتبارهـم مواطنين في مجتمع مسـالم.

إن الـصراع عـلى السـلطة والطمـع فيهـا هـو السـبب دائمـا وراء الحـروب عـلى مـدار التاريـخ البـشري، وقـد وضـع الإسـلام مبـدأ يقوم عـلى أساسـه نظـام الحكم وهو الشـورى، وقد عبرت عنه الآيـة القرآنية بالتـالي: «وَأَمْرُهُـمْ شُـورَىٰ بَيْنَهُمْ» (سـورة الشـورى 42). هـذا يعني أن الحكـم في الإسـلام إنمـا ينبثـق ويخـرج من داخـل المجتمـع ولا يأتي من

الخارج، فهو ليس أمراً يتم فرضه من قبل أحد ما، والحديث التالي يبين الأمر:«كما تكونوا يولى عليكم.»[50]

إن أسباب الحروب من أجل بلوغ السلطة دائما تكون رغبة شخصية أو رغبة جماعة ما لإزالة منافسيهم عن السلطة، وهذا ما يؤدي إلى نشوب الحرب بين الطرفين، أخذاً بمبدأ أن السلطة ليست أمراً يتم فرضه، وإنما هي شيء ينبثق من داخل المجتمع، فإن أسباب الحرب ستتقلص تلقائياً. فلو أن لأحد ما أفكاراً للممارسة والإدارة السياسة، فليس أمامه إلا خيار واحد وهو نشرها سلميا بين أفراد المجتمع وليس فرضها عليهم، وعليه أن ينتظر حتى يقبلها المجتمع تلقائيا. فلا يحق لإحد فرض إفكاره السياسية.

توجد العديد من الآثار النبوية التي تحث الناس وتأمرهم بعدم الدخول في صراع مع الحكام، ولو كانت عندهم شكوى ضد حكامهم فعليهم تغيير الساحة ليصرفوا طاقاتهم ونشاطاتهم في مجالات أخرى غير السياسة. وهناك العديد من الآثار المدونة في كتب الحديث في باب الفتن، وقد لخص الإمام النووي رأي الأمة في هذا الأمر بالقول: «وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق.»[51]

إن هذا المبدأ لا يعني أبدا هجر السياسة وتركها، ولكنه يحمل في طياته حكمة عظيمة، فهو يبين أن الإسلام يفرق بين الأنشطة المختلفة ويفصل بينها ويجعل لكل واحد مجالاً لتخصصه، فلو أنك درست القرآن

50- شعب الإيمان، البهيقي، حديث رقم (6006).

51- المنهاج شرح صحيح مسلم،بيروت، دار أحياء التراث العربي، 1972، مجلد 12، ص 229.

وخاصـة الآيـة41 من سـورة الحـج[52]، وآيـات كثيرة في هذا الجانب، سـتجد أن القـرآن يفـرق بـين مجالـين اثنين من الحيـاة : المجال السـياسي و المجال غـير السـياسي، حيـث يقـترح مجالـين للعمـل، وطبقاً للقـرآن فـإن واجب الحاكـم إيجـاد مناخ سـلمي يخلق الانسـجام داخـل المجتمع، أمـا واجب المصلحـين فهـو الاهتمام بالأنشـطة غـير السياسـية مثل التعليم الرسـمي وغير الرسـمي والعمل الدعوي (تبليغ رسـالة الله للناس)، وأن يغرسـوا في أذهـان الناس التفكير السـوي وغيرها، وبهذا يقـوم كل فريق بدوره في بناء مجتمـع أفضـل، ويؤدي كل فريـق وظيفته بكل يسر، وتنتهـي الصدامات والمواجهـات. إن مبدأ تقسـيم المهام يقضي على أسـباب المواجهة والصدام داخـل المجتمـع، ونتيجـة لهذا ينعـم المجتمع في انتشـار السـلام وليس في وجـود الحـروب. تهـدف هـذه التعاليم وغيرهـا، وكذلك الـواردة في القرآن والسـنة إلى وضـع نهايـة للحـرب والعنـف داخـل المجتمـع، لتنشـأ بيئـة طبيعيـة مبشرة تنتشر فيها الأنشـطة الصحيـة البناءة.

الحقيقـة هـي أن الإسـلام هـو دين السـلام بـكل مـا في الكلمة من معنـى، وليـس أبـدا دينـا يدعـو إلى الحرب. فالسـلام هو المبـدأ الرئيس في الإسـلام، أمـا حالـة الحـرب فإنمـا هـي الاسـتثناء في ظـروف نـادرة، وعـلاوة عـلى ذلك، فالاسـتثناء قد يكـون صالحاً في العصـور التي كانت الثقافـة القبليـة هـي السـائدة فيهـا، أمـا هـذا العـصر فهـو مختلـف تمامـاً، فنحـن نعيـش في عـصر الديمقراطيـة وعـصر الأمـم المتحـدة، لذا فـإن مصطلـح الحـرب قـد أصبـح مهجـورا في القوانـين الدوليـة اليـوم، ولـو أن حربـا قـد نشـبت في هـذا الزمـان فهي ضـد الطبيعة السـائدة، وهـي ضـد التـوازن الكوني.

52- يشير الكاتب لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

التكافل قانون الطبيعة

طبقـا للسـنن الكونيـة فـإن حيـاة النـاس تبنـى عـلى أسـاس مبـدأ التكافـل، وأن التبايـن والتفـاوت متـوارث في البناء الاجتماعـي، ولن يكون المجتمـع في سـلام وتناغـم إلا إذا قبـل كل فـرد مـن أفـراده هـذا التبايـن والتفـاوت مـع الحاجـة الظاهرة إلى التكافل، حيث يشـير القـرآن إلى هذا الأمر في الآية 31، من سـورة الزخرف ، قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. إن هـذه الآيـة تبـين أن التقدير الإلهي يقـضي بعدم التماثل بين الناس، ولكن التفاوت أوالتباين موجود، وهذا يتضمن حكمة عظيمة وهـي أن يـدرك الناس أنه لا أحد يمكنه أن يسـتغنى عـن الآخرين ويكون مسـتقلاً بذاتـه، فهو في حاجـة إليهم حتى يكمل نفسـه وهذا ما تقتضيه الخطـة الإلهيـة في الخلـق، وبمعنـى آخـر على كل فـرد من أفـراد المجتمع أن يقبـل التكافـل عـلى أنه حالة حيويـة لأجل قيام المجتمعـات البشرية.

وعـلى النـاس أن يقبلـوا وجـود التفـاوت عـلى أنه حقيقـة واقعة، وإدراك هـذا الأمـر وقبوله كظاهرة إيجابيـة داخل المجتمعات البشرية يضـع حـدا لعـدم الاسـتقرار الاجتماعـي. فالواجـب علينـا أن نبـين أن هـذا الأمـر يسـير طبقـاً للخطة الإلهيـة في الخلـق، وهذا ما يسـير عليه الكـون بكاملـه، إن القبـول بهـذه الحقيقـة يسـاعد عـلى التخلـص من العنـف داخـل المجتمـع، وعـدم الرضـا والقبـول بالتفـاوت الـذي هـو صفـة وخصوصيـة المجتمـع البـشري سـيؤدي إلى الكراهيـة بـين الناس، وباسـم إزالـة التفـاوت مـن العـالم ينخرط النـاس في العنـف والمواجهة وبهـذا تبـدأ دائـرة مغلقة مـن العنـف المتواصل.

ولو قبل الناس هذا التفاوت على أنه حقيقة واقعة، فإن ثقافة التعاون أوالتكافل ستسود داخل المجتمع، وسيتعاون الأفراد فيما بينهم، وبهذه الطريقة تدعم ثقافة التعاون والتكافل، وسيؤدي ذلك إلى انتشار السلام في المجتمع دون شك.

إن الذين ينخرطون في أعمال العنف لا يوجهون هذا العنف ضد شخص ما أو جماعة، بل هو ضد خطة الله في الخلق، وهناك العديد من الأوامر والوصايا في القرآن والسنة تحرم العنف، وأن السبب من وراء ذلك هو أن ثقافة العنف تسير ضد خطة الله في الخلق، فطبقا لخطة الله فإن وصول هؤلاء إلى السلطة إنما هو إنعام إلهي أنعم الله به عليهم، وعلى الآخرين القبول بذلك وعدم الانخراط في أي تجمع لإزالتهم عن السلطة. وبمعنى آخر فإن خطة الله تقتضي المحافظة والقبول بالوضع القائم، وإن مبدأ القبول بالوضع القائم هو الوصفة الوحيدة للحصول على السلام في العالم. إن محاولة تغيير الأوضاع القائمة يؤدي إلى التفرقة، أما إعداد الخطط لممارسة الأنشطة المختلفة مع القبول بالوضع الراهن فسيؤدي إلى السلام.

فلو أن فردًا ما أو جماعةً معينة، لها شكوى أو رأي مخالف، فليس أمامهم إلا التفاوض السلمي. إن محاولة التغيير عن طريق العنف ليس خياراً لأحد ولا يوجد عذر مقبول أبدا في هذا السياق.

إن وجود التفاوت والاختلاف بين الرجال والنساء ليس شراً بل هو في الحقيقة خير، فعندما يكمل الناس بعضهم بعضا يؤدي ذلك إلى ظهور ثقافة التعاون والتكافل، وهذا يؤدي بالضرورة إلى إرساء جو من السلام والمحبة والصداقة.

إن ثقافـة التكافـل أوالتعاون تمنحنا كل القيـم البشرية الراقية، وهو مـا يـؤدي إلى ظهـور أفضـل نظـام للمجتمـع، إن هـؤلاء المنخرطـين في أنشـطة العنـف لا يقوضون أسـس المجتمع فحسـب بل يضيعـون هدفاً لا يمكـن تحقيقـه أو الوصـول إليه وهو التكافل. إنه قانـون الطبيعة وأن القبـول بـه يجلب السـلام إلى المجتمع ويفتح كل أبـوا ب التقدم والرقي.

الشر الأعظم في التاريخ

الحـرب ليسـت ظاهـرة جديـدة فقـد كانـت دائمـاً جـزءاً مـن التاريـخ البـشري، فمنـذ البدايـة الأولى للبشريـة اندلعـت الحـرب بـين ابنـي آدم، وكانـت النتيجـة أن هابيـل قتـل أخـاه قابيـل، ومنـد ذلـك الوقـت اسـتمرت الحرب بين الأمـم والجماعات البشريـة، ولكن الدرس الـذي نسـتخلصه مـن التاريخ أن للحـرب نهاية دائما، فـلا توجد معركة اسـتمرت لفـترة غـير محـدودة، حتـى الحربـين العالميتين فقد اسـتمرتا لفـترة محـدودة ثـم انتهتـا. إلا أن حالـة المسـلمين تبدو مختلفـة تماما، حيـث نتعلـم درسـاً مـن التاريـخ مفـاده أن الحـرب إذا نشـبت بـين المسـلمين فلـن تضـع أوزارهـا، هنـاك حديـث عـن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم في صـورة نبـوءة تبـين أن هـذا الأمـر صحيـح تمامـا حيـث يقـول «إذا وضـع السـيف في أمتـي لم يرفـع عنهـا إلى يـوم القيامـة.»[53]

إن المجتمـع الإسـلامي يعتـبر اسـتثناءً في هـذه الحالـة، فمن خلال التحليـل العميـق للوضـع نجـد أن السـبب وراء هـذا الأمر هـو التبرير الشرعـي للعنـف أي تبريـره مـن خـلال الأحـكام الشرعيـة، وكونهـا مقدسـة فـإن تبرير العنـف من خلالها لا يسـمح بأي مجال لمناقشـتها.

53- الترمذي، حديث رقم2202، والمستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (3473).

ما هو هذا العنف المشروع يا ترى؟

إنـه العنـف الـذي يمارس باسـم الجهاد الإسـلامي. إن المعارك التي خاضهـا المسـلمون خـلال التاريـخ هـي باسـم الجهـاد، وإن الاعتقـاد المتـوارث عـن الجهـاد في الإسـلام أن الفـوز دائمـا حليـف المجاهديـن في حالتـي النـصر أو الهزيمـة، فإمـا النـصر أو الشـهادة، والشـهداء ليس أمامهـم إلا الجنـة.

إن الأمر الصحيح بالنسـبة للجهاد القتالي في الإسـلام لا يكون إلا في حالـة الدفـاع، وبمـا أن الدفاع أمـر يهم الدولة فمن النـادر وقوعه، وإن جميع الذين ينشـطون باسـم الإسـلام في سـاحة القتال هم في الحقيقة لا يمثلـون الدولـة، فـلا توجـد دولة مسـلمة قائمة انخرطـت في الحرب، إن طبيعـة العنـف في هـذا العـصر ليسـت إسـلامية، فالمبـدأ الإسـلامي المقبـول يقـول:«إن إعـلان الحرب مـن خصوصيات الدولـة القائمة.»[54]

وطبقـاً لهذا المبدأ فإن جميع الجهاديين الإسـلاميين الذين ينخرطون في الحـرب لا يملكـون مـبرراً شرعيـاً، فعـلى مثـل هـؤلاء أن يتوقفـوا عـن الحـرب فـوراً مـن جانبهـم، وبـلا أدنى شرط، ويغـيروا وجهتهـم بالكامـل لينخرطـوا في الأنشـطة السـلمية، ففـي هـذه الأزمنـة بالـذات لا يوجـد لديهـم أي خيـار لخـوض الحـرب، طبقا للأعـراف العالميـة في هذا العصر وليـس هنـاك أي احتـمال آخـر عدا السـلام.

إن الحـروب التـي يخوضهـا المسـلمون في هـذا الزمـان ليسـت حـروب دفـاع عـن أوطانهـم، ولكنهـا كـما يدعـون لأجـل إزالـة الظلـم

54- صحيح البخاري، كتاب الجهاد و السير، حديث رقم : (2957). ونص الحديث : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ)

وإحـلال العدالـة، وبـدون أدنى شـك فهـذه حـروب مـن صناعتهـم، فلا يوجـد في القـرآن ولا في السـنة ما يأمر المسـلمين بخـوض الحرب لإزالة الظلـم وإحـلال العدالة.

إن حقيقـة الأمـر هـي أن الاعتقـاد بـأن هـذه الحـرب شرعيـة أمـر خاطـئ، وقـد بُنـي عـلى أسـاس خاطـئ، وهـو تفسـير خاطـئ للقـرآن والحديـث. إن أسـوأ أشـكال هـذه الحـرب غيرالشرعيـة أنهـا كانـت في البدايـة موجهـة ضـد الأمـم غـير المسـلمة، وفي نسـختها النهائيـة تصبح حرباً داخلية بين المسـلمين أنفسـهم. إن السبب وراء ذلك أن المنخرطين في الحـرب حـين يفشـلون في الحصـول عـلى نتائـج إيجابيـة مـن ورائهـا، يعتقـدون أن وراء ذلـك وجود بعـض المؤامرات تحاك ضدهم، ومتآمرين مـن بينهـم وبهـذا يوجهـون عداوتهـم إلى داخـل مجتمعاتهـم، وعندمـا يصـل الأمـر إلى هـذا الحـد فـإن الـشر يتعـدى كل الحدود والمسـتويات، ذلـك أن الحـرب تنشـب بـين المسـلمين أنفسـهم فيقتـل بعضهـم بعضا.

لقـد تنبأ رسـول الإسـلام بهـذا الشر قبـل حدوثه تصديقـاً للحديث الـذي يقـول:«لا ترجعـوا بعـدي كفـارا يـضرب بعضكم رقـاب بعض»[55] . لقـد ظهـرت هـذه النبـوءة في القـرن الواحـد والعشريـن، فنحـن نرى اليـوم وفي كل أنحـاء العـالم أن المسـلم يقتل أخاه المسـلم. ففي معظم العمليـات الانتحاريـة نجد الجـاني والضحية من المسـلمين.

إن هـذه الظاهـرة تبـين لنـا أن الـشر الأعظـم يظهر عندمـا يصبح العنـف منتـشراً بـين المسـلمين أنفسـهم، إن هـذا تنبيه للمسـلمين فإن لم يكفـوا أيديهـم عـن هـذا العنف والقتل وسـفك الدماء فسـيصبحون في نظـر اللـه كفاراً.

55- صحيح البخاري، حديث رقم 121.

إن هـذا التحذيـر النبـوي يجـب أن يكـون كافيـاً لجعـل المسـلمين يخلصـون التوبـة للـه، ويتركون العنـف جانباً دون أدنى تأخـير، وعليهم أن يلقـوا بأسـلحتهم بعيـداً في البحـر، وأن يمارسـوا حياتهـم بوصفهـم مواطنـين مسـالمين فـلا خيـار آخـر أمامهم.

والله يدعو إلى دار السلام

هـذه آيـة مـن القـرآن الكريـم لهـا صلـة بحـال المسـلمين اليـوم، يقول تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ» (سـورة يونس 25). إن المقصود هنـا بـدار السـلام هي الجنـة، فالجنة هـي مكان السـلام المثـالي، فالله سـبحانه وتعالى يدعو كل البشر ليسـلكوا سـبل السـلام في هذه الحياة الدنيـا حتـى يفـوزوا بالجنـة، فعليهـم أن يوطنـوا أنفسـهم عـلى اتبـاع سـبل السـلام والانخـراط في بيئة السـلام.

كذلـك يصـف اللـه بيئـة الجنة في آيـة أخرى بهـذه الكلمات: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾، (سـورة الواقعة 25-26). هـذا أفضـل وصف للجنـة إنها المكان المثـالي والمجتمع الأمثل والأكمـل، فـلا انزعـاج ولا نصـب فيهـا، إن بيئـة السـلام هـي ما يسـود الجنـة، وهـذا الوصـف يجعل الأمـر يتضمن هـذا التحذير للبـشر: أيها النـاس إن أردتـم أن تضمنـوا دخـول الجنـة، فيتحتـم عليكـم أن تتركوا جميـع أنـواع العنـف، وأن تنخرطـوا في بيئـة السـلام، فالجنـة مـكان يخلـو مـن الكراهيـة، وأن هؤلاء الذين يعيشـون في هـذه الحياة الدنيا في حالـة مـن الكراهيـة فلـن يجـدوا لهم مسـتقرا فيها.

لقـد كان الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم شـخصية محبة للسـلام

بـكل معنـى الكلمـة، وقـد وقعـت معـارك عديـدة في زمنـه إلا أنهـا جميعـاً كانـت معـارك دفاعيـة، وأحـد هـذه المعـارك غـزوة بـدر التـي وقعـت سـنة 624م، و في الأثـر نجـد أنـه أثنـاء المعركـة كان جالسـاً في معسـكره بعيـداً عـن مـكان المعركـة، وقـد شـوهد وهـو يرسـم بعـض الخطـوط عـلى الرمـل وقـد علـق أكبر خـان على ذلـك قائـلا: «إن قائد المسـلمين يخطـط للمعركـة القادمة» هـذا الرأي بني عـلى التخمين ولم يأخـذ في الحسـبان الحقائـق، فعندمـا نـدرس الأحاديـث الأخـرى يتبين لنـا بـكل وضـوح أنـه كان يخطـط لإحـلال السـلام في المسـتقبل.

يمكـن أن نـدرك هـذا الأمر من خـلال الحديث التالي: كان الرسـول صـلى اللـه عليه وسـلم جالسـاً بين أصحابـه إذ جاءه جبريـل وكان معه ملـك لم يطـأ الأرض إلا في تلـك اللحظـة منذ خلقت فقال لـه: يا محمد إن اللـه بعثنـي لأخيرك بين أن تكون ملكاً رسـولا أو نبياً رسـولاً؟ فأشـار عليـه جبريـل أن يختـار الوسـطية لأجـل ربـه، فاختـار أن يكون رسـولاً نبيـاً. مسـند أحمد حديـث رقم 7160.

إن هـذا الحديـث يبـين لنـا كيـف كان يفكـر الرسـول فلـم يكـن عقلـه سياسـياً بـل كان عقـلاً نبويـاً، فلـم يكـن همـه إقامـة الحكـم في العـالم ولكـن إبـلاغ الرسـالة غـير السياسـية للنـاس.

هنـاك أيضـا دعـاء للرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم يقـول فيـه: **(اللهـم أنـت السـلام ومنك السـلام و إليك يعود السـلام اللهـم أحينا بسـلام وأدخلنـا الجنـة دار السـلام تباركـت وتعاليـت يا ذا الجـلال والإكـرام).**

مـن هـذا الدعـاء وهـذه الكلـمات وكذلـك ما حـدث بعـد المعركة يتبـين لنـا أن الأمـر كان مختلفـاً تمامـاً، لقد خاض الرسـول تلـك المعركة

وهـو مكـره لأن أعـداءه قـد أجـبروه عـلى ذلـك، أمـا في المعـارك التالية فقـد حـاول باسـتمرار تفـادي الوقـوع في القتـال إلى أقـصى حـد، وفي نهايـة الأمـر، وفي أثنـاء المفاوضـات قبـل بـشروط الأعـداء متنـازلاً مـن طرفـه حتـى يحـل السـلام بـين الطرفـين، وبهذا ظهـر إلى الوجـود صلح الحديبية.

إن الحقيقـة هـي أن الحـرب إنمـا هـي ضـد خطـة اللـه في الخلق، فطبقـاً لخطـة اللـه عـلى كل فـرد ولد على وجـه الأرض أن يبني نفسـه ويطورهـا باتبـاع السـبل الروحيـة، وعليـه أن يزيـل جميـع الأمـور السـلبية مـن نفسـه لتحـل محلها الأمـور الإيجابية حتـى يصبح تفكيره إيجابيـا بالكامـل، فطبقـا للقـرآن عـلى كل فـرد أن يجاهد نفسـه حتى يسـمو بهـا ويكتسـب أخلاقاً سـامية. قال تعـالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، (سـورة النسـاء 4).

باختصـار فـإن خطـة الله تقتـضي أن يسـتمر البنـاء الأخلاقي دون عراقيـل ومنغصـات أمـام الجميـع، ولـكي يكون مثمـراً وبنـاءً، يجب أن يكـون في بيئـة مـن السـلام، وليـس بيئـة العنـف والقتـال، وبهـذا فـإن تجـار الأسـلحة ومروجيهـا لا يعملـون فقـط ضـد البـشر ولكـن ضـد خطـة الله.

إن اختيـار الحرب باعتبارها وسـيلة جريمـة لا يغفرها الله، والدليل الواضـح عـلى هـذا أن هـؤلاء الذيـن جعلوهـا وسـيلة لم يسـتطيعوا أن يحققـوا أهدافهـم التـي يطمحـون إليهـا رغـم كل مـا بذلـوه مـن تضحيـات ولعقـود طويلـة، فالحقيقة هي أن كل الـذي جنوه من ذلك هـو الدمـار والهـلاك لنفـوس المسـلمين وغيرهم.

التدبير الإلهي للتاريخ البشري

نتعلـم مـن القرآن أن أحـد قوانين التاريخ هو قانـون التدافع، وقد ذكـر في القـرآن عـلى النحـو التـالي: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سـورة البقـرة 251). فهـذا القانـون يعنـي أن اللـه قـد منـح الحريـة الكاملـة للإنسـان، ولكنـه في الوقـت نفسـه يراقـب باسـتمرار العـالم البـشري، وأثنـاء المحافظـة عـلى حريـة البـشر في التـصرف فـإن الله يديـر ويدبر التاريـخ البـشري باسـتمرار، وعـلى أسـاس هذا التدبـير الإلهـي للتاريخ البـشري فـإن الاسـتخدام الخاطـئ للحريـة لا يصـل إلى المسـتوى الذي يـؤدي إلى الفسـاد العظيم.

إن الحريـة التـي منحهـا الله للإنسـان في الحقيقـة لها هدف خاص ذلـك أنهـا مصممـة بحيـث تمكن الإنسـان مـن بنـاء شـخصيته في هذا العـالم. وهـذا الهدف لا يمكـن تحقيقه إلا بالحريـة، إلا أن هذه الحرية في حـد ذاتها قـد تـؤدي في الغالـب إلى سـوء اسـتعمال، لهذا فـإن الله يراقـب دائمـا وباسـتمرار تطـور التاريـخ البـشري، حتـى لا يـؤدي سـوء اسـتخدام الحريـة إلى أقـصى الحـدود في التطرف مما يعـرض خطة الله للخطـر، هـذا هـو السـبب في أن اللـه جعـل نهايـة لعـصر الملكية على يـد الثـورة الفرنسـية، ذلـك أن النظـام الملـكي لا يكفل الحريـة للبشر.

عندمـا ظهـرت الأمبراطوريـة الشـيوعية سـنة 1922م، وضعـت قيـوداً صارمـة عـلى الحريـات البشريـة، وهـذا الأمـر ضـد خطـة اللـه في الخلـق، وكان هـذا السـبب في نهايـة الشـيوعية بعـد 65 سـنة مـن الحكـم، إن هـذا الأمـر لم يحـدث صدفـة، ولكنـه بـكل تأكيـد بسـبب إدارة اللـه للتاريـخ البـشري.

إن الأمـر نفسـه يحـدث الآن لهـؤلاء الذيـن اسـتحدثوا تبريـراً مشروعـاً لأنشـطتهم الإرهابيـة، حيـث مارسـوا أعمالهـم الإرهابيـة عن طريـق حـركات إرهابيـة متعـددة. فـكل هـذه الأنشـطة في الغالـب تعمـل خـارج إطـار الدولـة وهـي جميعـا ضد خطـة الله وبـكل تأكيد لهـا زمـن وفـترة محـدودة. مـن وجهة نظـري فإن هـذا الإرهاب سـواء سـمي باسـم الجهـاد أو باسـم آخـر، فـإن الله سـيزيله دون أدنى شـك، ويمكننـا أن نقـول مطمئنـين أن عمليـة إزالتـه قـد بـدأت فعـلاً.

إن المجموعـات الإرهابيـة وبالرغـم مـن التضحيـات العظيمة التي بذلتهـا لم تنجـح في بلـوغ أهدافهـا التـي تصبو إليهـا، ولم تتمكن إلا من إحـلال القتـل والدمـار في العـالم، وفي المقابـل فـإن الرأي العـام العالمي قـد انقلـب ضدهـا، وقـد فشـلت في تسـجيل أية نتائـج إيجابيـة يمكن أن تكـون تاريخيـاً إلى جانبهـا، إن النتيجة السـلبية هـي أهم دليل على أنهـا مرفوضـة مـن قبـل الخالـق، وبالنسـبة للمبـدأ القرآني فـإن قانون التدافـع يعمـل ضدهـا. إن الإرهـاب وبكل تأكيد سـيزول قريبـا أو أنه سـيصبح ضعيفـا إلى حـد بعيد .

إن هـذا التوقـع لمصـير الإرهـاب يخبرنا أنـه من المحتمـل أن عصرا جديـدا سـيبزغ فجـره في القريـب العاجل، وهو عصر مـا بعد الإرهاب أي عـصر السـلام، وبهـذا فـإن الأنشـطة البنـاءة سـتبدأ حـالا، و هـي تلـك الأنشـطة التـي يرضاهـا اللـه ويحبها، وهـي لم تنضج بعد بسـبب الإرهـاب ، إن أهـم جانـب في جميـع هـذه الأنشـطة أن عـصر السـلام سـيفرق بـين الدين والإرهـاب. وأن هذا الفصل بينهـما يبشر دون أدنى شـك ببـزوغ عـصر جديد للسـلام لـكل البشرية.

إن الصحافـة أوالإعـلام اليـوم مملـوء بصـور العنـف، إلا أن الوضع وراء المشـهد مختلف تماماً، فهناك عملية تسـير بصمت وسـط أنشـطة العنـف الظاهـرة هـذه، وهذه العملية سـتنقل التاريخ مـن العنف إلى اتجاه السـلام.

إنـه طبقـاً للتقاريـر الصـادرة عـن المعهـد العالمي للدراسـات حول السـلام في سـتوكهولم، فـإن تسـع دول في العـالم تنتـج اليـوم أسـلحة نوويـة، وجـد أنهـا جميعـا تواجـه مشـاكل مـن نوع مـا، رغـم أن هذه الأسـلحة لم تسـتخدم منذ إسـقاط القنابل الذرية في سـنة 1945م على كل مـن نـكازاكي وهيروشـيما ، إن النتائـج المرعبـة لاسـتعمال الأسـلحة النوويـة تظهـر المرحلـة الأخـيرة للعنـف، فعند اسـتخدام الحـد الأقصى للعنـف فليـس هناك فواصـل يمكن إضافتها، لذا يجـب أن تكون هناك قاطعـة لهـذا العنـف. وهـذا يحتم بـكل تأكيد عـدم اسـتخدام القنابل الذريـة مـرة أخـرى . إن الدمـار الشـامل الـذي أحدثه اسـتعمالها أثناء الحـرب العالميـة الثانيـة أعطى رسـالة مفادها أن اسـتراتيجية العنف لم تعـد تعمـل وأن كل المـؤشرات تشـير إلى أن التاريـخ البـشري يسـير من العنـف في اتجاه السـلام.

المركز العالمي للسلام

لقـد عـاش ألفـرد نوبـل بـين سـنة 1833- 1896م، حيـث ولـد في سـتوكهولم بالسـويد، وعمـل منـذ شـبابه في مصنـع والـده للأسـلحة، وجعلـه اتقـاده الذهنـي شـغوفاً بالتجـارب الكيميائيـة وصناعـة المتفجـرات، وقـد أدى ذلـك إلى تطويـر اسـتخدام البـارود، وبفضـل إنجازاتـه في مجـال المتفجـرات وبـراءة اختراعاتـه أصبـح غنيـاً جـداً.

وفي سنة 1864م حدث انفجار قاتل في مصنعه بلفيتروفليسرين ذهب ضحيته شقيقه الأصغر وعدد كبير من الناس مما جعل صحيفة فرنسية تعلن عن طريق الخطأ أن الانفجار قد ذهب ضحيته ألفرد نوبل نفسه، تحت عنوان تاجر القتل يصبح ضحية لأسلحته. حيث ذكرت التالي: «مات بالأمس ألفرد نوبل الذي أصبح غنياً بجعل الناس يموتون بطريقة أسرع مما كان عليه الأمر.» [56]

وعندما قرأ نوبل الخبر أصيب بصدمة كبيرة وأصبح يفكر بطريقة يمكنه بها أن يحسن صورته التي شوهت، فقرر أن يتنازل عن ثروته بالكامل ويسخرها في تقديم جوائز تسمّى باسمه حيث قدم 94% من ثروته البالغة 31 مليون كورونة سويدية التي تقدر بحوالي 186 مليون دولار أمريكي ليؤسس لخمس جوائز، وبهذا اشتهرت مؤسسة نوبل بتقديم جوائز لأعظم انجازات العالم في مجال السلام ومجالات أخرى.

لقد كانت خطة نوبل لبناء صورة حسنة له أعظم نجاح، حيث إن العالم اليوم يذكره على أنه أعظم داعم للسلام، إن قصة نوبل في اختراعاته للأسلحة التي باعها حتى أصبح غنياً التي كانت سببا في تشويه سمعته وصورته تشبه حال المسلمين اليوم.

إن المسلمين اليوم وبسبب الأوضاع السياسية انخرطوا في العمل نفسه الذي قام به ألفرد نوبل إلا أن الفرق يكمن في أن نوبل أسس لتجارة الأسلحة، وأن المسلمين أسهموا لثقافة العنف باستخدام الأسلحة، فإذا كان نوبل قد أسهم في قتل الناس بطريقة غير مباشرة، فالمسلمون ساهموا في قتلهم مباشرة . لقد شوهت صورة نوبل ولكن

56 Frederic Golden, The worst and Brightes Time, october 16,2000

الأمر بالنسبة للمسلمين أسوأ بكثير، فقد أسسوا لثقافة العنف باسم الإسلام ، و مارسوا نشاطاتهم على هذا الأساس، وبهذا فقد تم تشويه صورة الإسلام في حد ذاته، ومما زاد الأمر سوءاً، أننا في عصر الإعلام والصحافة حيث إن الأخبار السلبية عن العنف الذي يمارسه المسلمون تجد طريقه إلى الناس في كل لحظة لتغزو العالم بأسره، وبهذا أصبحت صورة الإسلام في العالم على أنه دين العنف.

لم يضيع ألفرد نوبل وقته في لوم الآخرين على ما أصاب سمعته نتيجة أفعاله، ولكنه وضع كل اللوم على نفسه وقرر تحسين سمعته بأن أعد خطة فريدة لأجل السلام .

لقد حان الوقت أمام المسلمين ليأخذوا القرار نفسه في تغيير الاتجاه كما فعل ألفرد نوبل دون تردد ، وأن يتبعوا الأمر الإلهي الذي جاء في القرآن على النحو التالي : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (سورة النور 31).

إن أفضل طريقة لتحسين صورة المسلمين، هي أن يعملوا على تأسيس مؤسسة ضخمة تحت اسم المركز العالمي للسلام، وعلى الدول الإسلامية والمؤسسات والأفراد أن يكونوا أعضاء في هذا المركز، وأن يشاركوا فيه بكل ما يملكون ليحظى المركز بالدعم من الجميع، على أن يؤسس على أرقى المستويات والمقاييس العالمية، وأن لا يكون سياسياً أو اجتماعياً أو تجارياً، و أن يكون هدفه الوحيد تعزيز السلام ودعمه ونشره، لأجل إحلال ثقافة السلام حول العالم بدلا من العنف. إن المجتمعات الإسلامية عليها دين يجب تسديده ألا وهو نشر كلمة الله وتبليغها إلى كل فرد يعيش على وجه الأرض من الرجال و النساء، وعليهم أداء هذه المهمة بأقصى الجهود

وبالوسـائل السـلمية، وأن المركـز العالمـي للسـلام هـو الوسـيلة التـي تمكنهـم مـن القيـام بهـذه المسـؤولية، وإن الله بـكل تأكيد سـيؤيدهم بنـصره إذا مـا قامـوا بمهمـة تحسـين صورة الإسـلام ليصبح دين السـلام بـدلا مـن كونـه ديـن العنف.

يبلـغ عـدد المسـلمين اليوم حول العـالم حوالي المليار نسـمة، و كل مصـادر الـثروة الطبيعيـة متوفـرة لـدى الـدول الإسـلامية وأن أفضـل اسـتعمال لهـذه الـثروة هـو مـن أجل تحسـين صـورة الإسـلام ، ويجب أن يصمـم المركـز العالمـي للسـلام مـن أجـل هـذه المهمة.

ملحق: خطة الله في الخلق*

خلص المؤرخ المشهور ادوارد جيبون إلى أن التاريخ البشري لا يعد إلا سجلاً للجرائم والحماقات والإخفاقات البشرية.[57]

وهـي عـين الخلاصـة والنتيجة التـي وصل إليها غيره مـن المؤرخين، فالحيـاة الفاضلـة أو الوجـود المثـالي المنشـود مـن الفلاسـفة لم تعرفـه المجتمعـات البشريـة عـلى الإطـلاق. إن أولئـك المسـتشرقون الذيـن درسـوا بعمـق التاريـخ البـشري، رصـدوا حالات مـن الفشـل والإحباط في الوصـول إلى المدينـة الفاضلـة، ولم يتـأتى لهـم تسـجيل أي اسـتثناء مغايـر لتلـك الحالـة على مراالتاريـخ البشري. وأكدوا عـلى أن ما حدث فى المرحلـة الأولى للإسـلام أو مـا يعرف بـ(العصر الذهبـي)، لا يرقّى إلى المثاليـة (المدينـة الفاضلـة) رغـم مـا يتمثلـه تلـك المرحلـة بدون شـكّ مـن صـورة أفضـل بـا لمقارنـة مـع كافة مراحـل التاريـخ الأخـرى. ففى حيـاة النبـي (صـلى اللـه عليـه وسـلم) راجـت النشـاطات العدوانيـة

*هذه ترجمة عن كتيب

57-Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of Roman Empire, Norwalk, The Easton Press, 1974, p.69.

(العدائيـة) للمنافقـين بـين المسـلمين واليهـود والوثنيـين خارجيـاً، ولم تشـهد المدينـة المنـورة مـأوى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، أي علامـات واضحـة عـلى أنهـا تحولـت إلى منطقة سـلام.

بعيـد وفـاة النبـي صلى الله عليه وسـلم، تمّ اختيـار الخليفة الأول أبـو بكـر الصديق (رضي اللـه عنه) كقائد للمسـلمين لتثور عليه معظم القبائـل العربيـة، والتـي لم ترضـخ إلاّ بعـد اسـتخدام القـوة لإعـادة السـيطرة عليهـا. وهكـذا تظهـر في كلّ مرحلـة تطـورات غـير مرغوبـة لتشـكل عقبـة أمـام قيـام المجتمـع الفاضـل. فى زمـن الخلافـة الثانيـة لعمـر بـن الخطـاب، عملـت مجموعـة سريـة فى المدينـة عـلى اجتثاث الإسـلام، وتمكنـت في نهايـة المطـاف مـن اغتيـال الخليفـة الراشـد عمر بـن الخطـاب (رضي اللـه عنـه). وفى عهـد الخليفـة الثالـث عثـمان بـن عفـان (رضي اللـه عنـه) انطلـق سـيل المعارضـة المفتوحـة (الشـعبية)، وتـمّ بصـورة مشـابهة قتـل الخليفـة الراشـد علانيـة. أمـا فى فـترة حكم الخليفـة الرابـع عـليّ بـن أبي طالـب (رضي اللـه عنـه) فقـد أندلعـت الفتنـة الكـبرى التـى ذهبـت فيهـا آلاف الأنفـس الغاليـة وأدت لمقتله هـو نفسـه. ونظـرا لتلـك الأحـداث والوقائـع التاريخيـة، ومـا تعكسـه مـن مـأسى مسـتمرة، عبر الفلاسـفة وأهل الفكر على نظرتهم المتشـائمة للتاريـخ البشري.

ذلـك أنّ الأحـداث المتلاحقـة عـبر هـذه الحيـاة الدنيـا، تعكـس حقيقـة أنّ بنـاء الدولـة الفاضلـة يبـدو أمـراً بعيـد المنـال ويسـتحيل تحقيقـه.

غـير أنّ السـبب وراء هـذه النظـرة المتشـائمة للتاريـخ البـشري، لا يعـزى للتاريـخ فى حـدّ ذاتـه ولكـن في النظـرة والتنـاول الخاطـئ

والمعيـب في دراسـة التاريـخ. وذلـك أنّ معيـار الدراسـة للتاريـخ حاليـاً ليـس بالمعيـار الصحيـح، فهـو قائـم عـلى النظـر لأفعـال البـشر، بينـما المعيـار الصحيـح الـذى يجب علينا دراسـة التاريخ فى ضوئـه هو النظر لخالقنـا مـن خـلال اكتشـاف حكمـة اللـه فى الخلـق وفهـم ودراسـة التاريـخ عـلى هديهـا.

إننـا نتعلـم مـن خـلال القـرآن الكريـم (الدراسـة القرآنيـة)، إنّ الفهـم الصحيـح للمجتمـع الإنسـاني يـدور حـول فكـرة أساسـية وهـي «الحريـة الفرديّـة» وليـس «الدولـة الفاضلـة.»

لقـد منـح اللـه تعالى الإنسـان كامـل الحريـة فى أفعالـه وأقواله فى هـذه الحيـاة الدنيـا كمتطلب أسـاسيّ لأدائـه الاختبار، وهـو حرّ فى كل أفعالـه حتـى أنـه قـادر عـلى نكـران وجـود اللـه تعـالى وقتـل أنبيائـه ومعاداة رسـوله.

ولـكي تصبـح الدولـة الفاضلة واقعـاً قائماً يجب علينـا إلغاء الحرية الفرديـة بـا لكامل. والله سـبحانه وتعالى وحسـب خطتـه فى الخلق لن يقـضي بإلغـاء الحرية الفرديـة تحت أيّ ظرف.

إنّ تلـك الطبيعـة الخاصـة للوجـود البـشري عـلى هـذه الأرض يشرحهـا القـرآن الكريـم بقـول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَـا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا لْإِنسَـانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًـا جَهُـولًا ﴾، (سـورة الأحـزاب 72).

«الأمانـة» فى الأيـة السـابقة تشـير إلى حريّـة الإختيـار التـى أوتمـن عليهـا بنـى آدم، ولا تمتلك السـماوات والأرض مثل هـذه الإرادة الحرة، وليـس لهـا أيّ مشـيئة مسـتقلة. فهـما مجبرتين عـلى الإنصيـاع للقوانين والسـنن الطبيعيـة التـى سـنها اللـه الدائـم الحـيّ لهـذا العـالم. بينـما

الإنسـان لا تـسري عليـه مثـل هـذا الإجبـار أوالإكـراه. ويتمتـع بكامـل الحريـة قـولاً وفعلاً.

تخبرنـا آيـة قرآنيـة أخـرى أنّ حكمـة اللـه في الخلـق اقتضـت بـأنّ الأمـر البالـغ الأهميـة في هـذه الحيـاة الدنيـا ليـس بنـاء «الدولـة الفاضلـة» بـل بنـاء الأفـراد المثاليـين: ﴿ **الـذي خلق المـوت والحيـاة ليبلوكم أيـكم أحسـن عمـلًا وهـو العـزيز الغفـور** ﴾، (سـورة الملـك 2)

إنّ الدولـة الفاضلـة لا تظهـر للوجـود في هذه الحيـاة الدنيا، بل في الحيـاة الآخـرة والتى أشـار إليها القرآن بـ(دار السـلام). ذلك أن العقبة الفعليـة لبنـاء الدولـة فى الحيـاة الدنيـا هـي وجـود أنـاس متمرديـن ومتكبريـن في كل مـكان، بينـما في عـالم الجنـة فى الحياة الآخرة سـيعزل الأشـخاص ذوي الأفعـال الشريرة عـن الناس الطيبين. ليضـم عالم الجنة فى الآخـرة تلـك الأرواح الطاهـرة، ففـى عـالم الجنة فقط يصبـح ممكناً إيجـاد «الدولـة الفاضلة».

إنّ خطـأ التفكـير لـدي الفلاسـفة والعلـماء اللادينيـين، يرجـع إلى رغبتهـم فى إيجـاد عالمـاً مثالياً فى هذه الحياة الدنيـا، بينما المجتمع الذي يتـماشى مـع تدبـير اللـه للأمورسـيصير حقيقـة فقـط فى الحيـاة الآخرة.

إنّ العقبـة الـكاداء لظهـور الدولـة الفاضلـة هـي إطـلاق الحريـة الفرديـة، التـي لا يمكـن إلغاؤهـا بالنظـر لوجـود اختبار إلهـيّ للبشرية حسـب الخطـة الإلهيـة، لذلـك سـتظل المدينـة الفاضلـة أوالمجتمـع الفاضـل حلـم يتعـذّر تحقيقـه.

وفقـا للنـص القـرآني، فقـد تم إعـلان وايضـاح تلك الحقيقـة وبكل جـلاء فى الحيـاة الدنيـا، و يبقـى الأمـر رهـين بـا لإنسـان للقبـول بها أورفضها.

قال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (سورة الكه 23)

وفى موضوع آخر يذكر القرآن الكريم: ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء الله لهداكم أجمعين﴾ (النحل9)

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (سورة هود 118 – 119)

إنّ تلك الحرية التى ضمنها الخالق جل وعلا للإنسان في الحياة الدنيا، تفسر لنا العجز الحاصل لإيجاد مجتمع متحد ومنسجم بالكامل على مر التاريخ البشري. إنه فى الوقت الذي يضم المجتمع أناسًا طيبين، يقابلهم أشخاصاً أشراراً، إن هذا الأمر لن يتوقف أبدا ليحصل خلاف ذلك، وحتى المجتمعات التى أقامها الأنبياء لم تسجل استثناءًا ولن يكون المجتمع المثالي ممكناً حتى مع وجود أفراد طيبين فى الحياة الدنيا. لكن على رغم من ذلك كله، فإن هذا الأمر لا يعد عيباً. فالحقيقة إنّ تكرار الإضطرابات والقلاقل داخل المجتمع أمر أساسي يتفق مع الحكمة الإلهية للخالق، مع أن تلك الأحول أوالأوضاع غير مرغوبة من أولئك الأشخاص الطيبين ذوي النفوس الرفيعة السامية.

يخبرنا القرآن الكريم إنّ الإنسان ولد في مشقّة وضنك، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ (سورة البلد 4)، ويخاطب الجنس البشري بالقول: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾، (سورة الأعراف 24) لبيان حقيقة أن الإنسان لا خيار بديل له عن العيش فى الحياة الدنيا التي تجمع بين الإختبار والمعاناة والخصومة والعداوة حتى يوم القيامة.

أنّ هـذا الوضـع الإنسـاني في الحيـاة الدنيـا ليس وليـد الصدفة، بل هـو اتفـاق كامـل مع الخطـة والترتيب الإلهـي لمجريات الحيـاة الدنيا، فالله سـبحانه وتعـالى خلـق هـذه الحيـاة الدنيـا لاختبـار وامتحـان أولئـك الأفـراد الجديريـن بالعيش فى الجنـة، فأهل الجنة هم أشـخاصاً فى منتهـى الروعـة والألتـزام بالحـق، فهم أصحـاب مبـادئ وقيم، وهم نتاج لظروف اسـتثنائية وليسـوا نتـاج لظروف وأحـوال عادية محايدة.

ومـن أجـل ذلـك، يتوجـب عـلى الإنسـان الإسـتمرار فى مواجهـة ظـروف غـير مرغوب فيها سـعياً للاصطفـاء، إنّ أمثال أولئك الأشـخاص هـم المطلوبـين، ويذكـر القـرآن الكريـم ذلـك الأمـر بالقـول: ﴿ آلم أحسـب النـاس أن يتركـوا أن يقولـوا ءامنّـا وهم لا يفتنـون ولقد فتنّا مـن قبلهـم فليعلمـنّ الله الّـذين صدقـوا وليعلمنّ االكذبين ﴾، (سـورة العنكبـوت1 – 3).

﴿ أم حسـبتم أن تدخلـوا الجنـة ولمّـا يأتـكم مثـل الـذين خلو من قبلـكم مسـتهم البأسـاء والـضرّاء وزلزلـوا حـتى يقـول الرسـول والذين ءامنـوا معـه متى نـصر الله ألا إنّ نـصر الله قريب ﴾، (سـورة البقرة 214).

ويتواصـل التوجيـه القـرآني عـلى ذات المعنـى فى موضـع آخـر فى قـول:{أم حسـبتم أن تتركـوا ولمّـا يعـلم الـله الـذين جاهـدوا منـكم ولم يتخـذوا مـن دون الـله ولا رسـوله ولا المؤمنـين وليجـة والـله خبير بما تعملـون}، (سـورة التوبـة 16).

إنّ المطلـوب الحقيقـي فى هـذا العـالم عنـد اللـه تعـالى ليـس المجتمـع الفاضـل أو الدولة الفاضلة بل الإنسـان الفاضـل، وكما يعلمنا القـرآن الكريـم فى قوله تعالى:﴿ هنالـك ابتلى المؤمنـون وزلزلوا زلزالاً

شـديداً ﴾، (سـورة الأحـزاب 11). ذلـك أنّ أولئـك الأفـراد الصالحـين الفاضلـين هـم نتـاج للابتـلاء والمعانـاة القاسـية، وليسـوا نتـاج لظروف سـلمية عاديـة محايدة.

إنّ اللـه تعـالى لينظـر بعين الرضا لأولئك الأشـخاص الذين نشـوا في خضـم الأفـكار والنظريـات والإيديولوجيات، وتمتعـوا بالقدرة على تميز الحـق، ودأبـوا عـلى التمسـك به، أمثـال هؤلآء الأشـخاص يمنحهـم الله تعالى القبول نظير إيمانهم الراسـخ فى وجه كل المحن العاتية والشـدائد المزلزلـة، فـلا يخالـط قلوبهم الدوافع والأحاسـيس السـلبية. حتى وهم عرضـة لـكل أنواع الاضطهـاد والمضايقـة. ويتحلون بالشـجاعة والإقدام عندمـا تلـوح فى الأفـق بـوادر الكـوارث والنكبـات. بـل إنهـم يصمدون فى وجـه ذلـك كلـه ويعملـون على ابتـكار الحلـول الناجعة، مـمّا يطور قدراتهـم الذهنيـة والعقلية والإدراكية. أولئك الأشـخاص يظلون أوفياء ومخلصـين لإيمانهـم باللـه تعـالى، عندمـا تواجهـم أحداث قاسـية وغير مؤايتـة لتدفـع بهم للإنحـراف عن الصراط المسـتقيم.

إنّ أولئـك الأشـخاص لا يعترهـم الاحبـاط عنـد مـا تلـوح نـذر المصائـب والجوائـح، بـل يتخطـون الاضطرابات الكبـيرة، بإيقاظ المعاني الروحيـة فى قلوبهـم، ويصبحـون أكـثر قربـاً مـن اللـه تعـالى.

إنّ الإنسـان الأكـثر قبـولاً مـن اللـه تعـالى، جديـر بالعيـش في عـالم الجنـة المثـالي والطاهـر، إنّ مثـل هـذا الإنسـان المتميـز شـكل ظاهـرة فريـدة، هـي الأهـمّ مـن بـين كل الأشـياء العظيمـة في هـذا الكـون، وسـينعم بحيـاة أخـرى جديـدة، فلقـد ولـد في ضنـك العيـش، وواجـه الظلـمات في هـذه الحيـاة الدنيـا، لذلـك سـيعيش في النـور الأبـدي فى الآخـرة. لقـد عـانى الحرمـان والخسـارة فى الحيـاة الدنيا. ولهذا سـيمنح

السعادة والبهجة في الحياة الآخرة. لقد سلك طريقاً محفوفاً بالأشواك، لقد تحمل بفارغ الصبر الحرمان من المتع والملذات الدنيوية، وذلك سيؤهله لولوج جنة الخلد النعيم الأبدي.

إنّ تلك الأنفس الغالية لن تخرج من الفراغ، ولا يتأتى لها أن ترتقي في وسط اجتماعي محايد أيا كانت درجة قربه من المجتمع الفاضل، بل إنها تظهر في خضم الصراع والعداوة ولا توجد بيئة وأرضية بديلة لظهورها.

إنّ ما يطلق عليه الفلاسفة بأنه شر اجتماعي ما هو إلا الأرضية أوالمجال التدريبي المصمم من الخالق عز وجل لا نتاج أناس ذوي خصائص روحية عالية (سامية) وأخلاقية رفيعة. ولذلك الغرض واجهت البشرية كل أنواع الصراعات والخصومات في كل مراحلها التاريخية.

إنّ المؤمنين المتقين وأصحاب الفضيلة والشرفاء وخاصة الأنبياء يجدون أنفسهم في أوضاع غير ملائمة، وهناك حديث نبوي يصف تلك الحقيقة:«إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه.»

وتلك الأوضاع غير الملائمة لا تختصّ بالمجتمعات غير المسلمة وحدها، بل هي جزء من المجتمعات المسلمة أيضا. لقد تعرض الأنبياء لإضطهاد شديد من معاصريهم من الوثنيين والمكذبين منذ القدم.

من خلال القرآن الكريم نعلم أنّ نبيّ الله موسى عليه السلام، هدد -بشكل ما – با لآذى النفسي والجسدي، رغم أنّه بعث وسط أهل الكتاب اليهود، قال تعالى: (يآ أيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسى فبرأه الله ممّا قالوا وكان عند الله وجيها)، (الأحزاب 69).

لقـد أقـام النبيّ صـلى الله عليه وسـلم دولة منظّمة بصـورة رائعة فى جزيـرة العـرب عرفـت فيما بعـد بالخلافة الراشـدة، وقـد توالى على حكمهـا أربعـة خلفـاء راشـدين، ولكـن حتى خـلال تلك الفـترة المثالية فى تاريـخ الإسـلام ظلـت الدولـة تعـاني مشـاكل خطـرة متنوعـة، بـل إنـه لم تتواجـد عـبر التـارخ أيّ دولـة إسـلامية يمكننـا اعتبـار أنهـا قـد احتضنـت المسـلمين فى حالـة سـلام ووائـم دائم.

إنّ هـذا الأمـر لا يعـزى لأي قصـور فى الدولـة الإسـلامية، ولكنهـا لـضرورات أيجـاد أرضيـة اختبـار وحقـل تدريبـي، وضعت مـن الخالق نفسـه لبلـوغ الرقـي والالتزام الأخلاقـي لبنى البشر. وكما سـبق وذكرنا ليـس مـن تدبـير الله تعـالى وجوب بنـاء مجتمع فاضل فى هـذه الحياة الدنيـا يحيـا فيـه النـاس حياة سـلام تـام، فطبقاً لتدبـير الله للأمـور إنّ الأولويـة تكمـن فى اعـداد وبناء الأفـراد، وهو الأمر الـذي يتعذر انجازه فى منـاخ أمـن ومسـالم، بـل يتم فى خضـم الإضطرابـات والفوضى.

في عـالم الحـاضر، نجـد أنفسـنا عـلى المسـتوى الوطنـي والطائفـي، نفتقـر لمصـادر ماديـة ومعنويـة، لبنـاء مجتمـع عـلى مسـتوى رفيـع، لكننـا نمتلـك الوسـائل لبنـاء شـخصية نموذجيـة لـدى الأفـراد، وهـذا الواقـع القائـم هـو مـا يتطلبه تدبير اللـه وغايته فى الخلـق. والتى تولى الإهتـمام ليـس لبنـاء المجتمعـات الإلهيـة ولكن لبنـاء الأفـراد الربانيين الملائمـين للعيـش فى مجتمع الجنـة المثالي. بالنظـر إلى مصطلح «المدينة الفاضلـة» فـإن التاريخ الإسـلامي يقـدم جوانب سـلبية ومظلمة، ولكن النظـر لمصطلـح «الإرتقـاء بالأفـراد» فـإن ذات التاريـخ يظهـر جوانـب مشرفـة وغايـة فى الإيجابية.

إنّ المجتمع المثالي اوالدولة الفاضلة لم تظهر أبدا إلى حيز الوجود عبر التاريخ الإسلامي ولكن لم يكن هناك أبداً نذرة فى أفراد ذوي خصائص إخلاقيه روحية عالية. حقا، إنّ سجلات التاريخ فقيرة فيما يتعلق بالمجتمعات الفاضلة لكنها صفحات مشرفة لأفكار وكلمات وأفعال أشخاص فاضلين.

الشيخ وحيد الدين خان

الشيخ وحيد الدين خان (مواليد 1925م)، مؤسس مركز التزكية والسلام العالمي، هو عالم متضلع في كل من التعليم الديني التقليدي والمعارف العلمية العصرية، ولقد كرس حياته سعياً منه لمعالجة القضايا المعاصرة المتعلقة بالدين الإسلامي وتقديم الإسلام في مصطلحات ولغة عصرية.

ومن أجل شرح الإسلام بلغة علمية معاصرة قام الشيخ وحيد الدين خان بترجمة معاني القرآن الكريم للغة الأردية مع تفسير للقرآن بعنوان « تذكير القرآن». ذلك التفسير الذي ترجم ونشر بعدة لغات الأنجليزية والعربية و الهندية والماراتية، كذلك، ويتميز جهد الشيخ بأنه تمكن من وضع ترجمة معاني القرآن الكريم بلغة أنجليزية معاصرة وسهلة الفهم. و لقد تم إعادة الترجمة إلي 23 لغة عالمية وهندية حتى الآن. وأسس الشيخ وحيد الدين خان مؤسسة تبليغ القرآن الكريم تحت رعاية مركز التزكية والسلام العالمي، لنشر رسالة القرآن الكريم والإسلام.

كتب الشيخ وحيد الدين خان: قام الشيخ بتأليف أكثر من مائتي كتاب وكتيب ونشرة، حول الإسلام في العصر الحديث،

والحكمـة النبويـة والتعايـش السـلمي، و موقـف الإسـلام مـن الحـرب والسـلم، وسـبل مواجهـة التطـرف، ويعـد كتابـه « الله يتجـلى»، الذي يقـدم الدليـل العلمـي والعقـلي للقبـول بفكـرة «وجـود اللـه»، معياراً للموقـف الإسـلامي مـن الفكـر الحديـث، و لأهميته تـم إدراجه ضمن مقـرارات الجامعـات في العديـد من الـدول العربية، وترجمتـه العربية طبعـت تحت مسـمى: «الإسـلام يتحدي»، وهو كتاب معروف وواسـع الانتشـار في العالم العربي، وتم ترجمة «الإسـلام يتحـدي» ونشره إضافة للغـة الأنجليزيـة والعربيـة إلى الماليزية و التركيـة والهندية ومالايالامية والسندية.

أمّـا في كتـاب: «الحكمـة القرآنيـة» فقـد بـين الشـيخ وحيـد الدين خـان أن القضيـة الأساسـية هـو معرفـة «خطة اللـه مـن وراء الخلق»، وقـد تنـاول فيـه آيـات مـن القـرآن الكريـم، يسـتخلص منهـا الحكمة، ويرشـد القـرّاء إلى العمـل وتطبيق تلك المبـادي في حياتهم. ومن ضمن كتبـه المهمـة الأخـرى: رسـول السـلام ، والجهـاد الحقيقـي، وعقيـدة السـلام، و رؤيـة الإسـلام، و إعـادة اكتشـاف الإسـلام، و القـرآن الكريـم لـكل الإنسـانية، والقـرآن الكريـم المعجـزة الخالـدة. ولقـد زار الشـيخ وحيـد الديـن خـان أرجـاء كثـيرة مـن العـالم في مناسـبات عـدة وكتب الكثـير مـن المقـالات في الصحـف والمجـلات المحليـة والدوليـة وألقـى الآلاف مـن المحـاضرات باللغـة العربيـة والأرديـة والأنجليزيـة.